اقرأ

الدكتورة بنت الشاطئ

أرض المعجزات

دار المعارف بمصر



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر

الدكتورة بنت الشاطئ

أرض المعجزات

الطبعة الخامسة

اقرأ ١٠٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٠٤ - الطبعة الخامسة

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

رحلة

فى مستهل عام ١٩٥١ : ١٣٧٠ هـ ، تلاقى جمع من أساتذة جامعة القاهرة وطلابها ، يتحادثون فى أمر عطلة نصف العام التى كانت تدنو حينذاك ، فاختار فريق أن يذهب إلى السودان ليتعرف إلى إخواننا أبناء الجنوب ، وآثر آخرون أن يحجوا إلى الحجاز معتمرين زائرين . وهى رحلة كانت جديرة بأن تستهوى كل المسلمين منا ، وتجذب إليها دارسى العربية وأدبها ، والإسلام وتاريخه . لكن قيمة الاشتراك فى الرحلة حددت بخمسة وأربعين جنيهاً ، فحال هذا المبلغ دون أكثر الراغبين ، ولم يبق منهم سوى عشرة : اثنان من أسرة كليـــة الآداب ، وخمسة من الطب ، واثنان من كلية التجارة ، وواحد من كلية الزراعة .

وضع برنامج الرحلة مقتصراً فى بادئ الأمر على الذهاب بالطائرة إلى « جدة » ومنها بالسيارة إلى «مكة» لقضاء سنة العُمْرة ومشاهدة أرض المبعث ومهد الإسلام ، ثم الرحيل بالطائرة إلى

« المدينة المنورة » لزيارة قبر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، والطواف بالمشاهد التاريخية الباقية فى دار الهجرة .

* * *

غير أن لفتة كريمة من حضرة صاحب السمو الملكى « الأمير فيصل آل سعود » — جلالة الملك فيصل — الذى كان يزور مصر آنذاك ، أفسحت الأفق المحدود أمام أعضاء البعثة ، ووعدتهم بجولة واسعة المدى ، يبلغون فيها نجداً والدهناء ، ويصلون إلى شرق الجزيرة حتى الأحساء والبحرين[١].

قبل موعد السفر بأيام تشرف ثلاثة من أعضاء البعثة : أستاذنا أمين الخولى ، والدكتور عبد السلام العيادى ، والدكتور محمود المنجورى ، بمقابلة سمو الأمير الجليل فى جناحه الخاص بفندق سميراميس ، فتفضل سموه وشمل البعثة برعايته السامية ، وأوفد السيد فؤاد شاكر لتوديعنا بمطار القاهرة ، صباح الأحد الرابع من فبراير ١٩٥١ .

وأقلتنا طائرة سعودية من طراز داكوتا ، إلى الأرض المباركة ،

---

(١) لمعرفة هذه الأماكن وغيرها من أعلام البلدان فى الكتاب ، راجع المصور الجغرافى ، فى الصفحة الأخيرة .

عبر الصحراء الشرقية وقناة السويس وشبه جزيرة سينا ، فلما بلغنا مطار المدينة المنورة ، أذن لنا فى استراحة قصيرة ريثما أحرْمنا ، وتوجهنا من بعد ذاك إلى « جدة »، فما كدنا ننزل من الطائرة حتى رأينا حشداً كريماً فى استقبالنا ، يتقدمه مندوب سمو الأمير عبد الله الفيصل ، والأستاذ حسن شعيب القائم بأعمال المفوضية المصرية بجدة ، ومندوب عن وزارة الخارجية ، وآخر عن المعارف ، وعدد من مندوبى الصحف والإذاعة اللاسلكية .

وكانت مفاجأة سارة لنا ، أن أُبلغنا ساعةَ وصولنا ، أننا ضيوف صاحب الجلالة الملك عبد العزيز عاهل الجزيرة ، ما أقمنا بها .

وفى الفندق تناولنا غداءنا واسترحنا قليلا ، ثم استقبلنا وفود المرحبين من أهل جدة الكرام .

ولما حان الأصيل ، قصدنا إلى « مكة المكرمة » محرمين معتمرين ، فصلّيْنا العشاء فى المسجد الحرام وأتممنا الطواف والمسعى ، ثم أوينا بعد العمرة إلى دار الضيافة ، حيث تتابعت وفود العلماء والشعراء لتحيتنا والترحيب بنا .

وفى الصباح زرْنا معالم أم القرى ، ثم رجعنا إلى جدة فتناولنا

غداءنا فى القصر الملكى بدعوة من سمو «الأمير عبد الله الفيصل»
وكانت جلسة حافلة ممتعة مع الأمير الشاعر، دار الحديث فيها عن العرب والإسلام، وعن الاتجاهات الأدبية الحديثة، والمعارك النقدية فى مصر اليوم، والمرأة المسلمة بين ماض وحاضر.

وقال سموه مودعاً : «أنتم فى داركم وبين أهليكم، لن نقيدكم ببرنامج للرحلة أو نوجه خط سيركم . لكم أن تعربوا عن رغباتكم، وعلينا التنفيذ . . .» .

وبهذا أزيلت الحدود التى كانت تقيد مسيرنا، فلا تأذن لنا بتجاوز منطقة «جدة — مكة — المدينة»، ورنونا إلى بعيد .

وفى دار السيد «محمد سرور الصبان»، رسمنا برنامج رحلتنا فى حرية وغبطة : نمضى إلى «الظهران»، ومنها إلى «القطيف فالبحرين»، ثم نعرج على «الرياض» فى طريقنا إلى «المدينة المنورة» .

* * *

رحلتنا إلى «الظهران» كانت حافلة مثيرة، حيث أمضينا هنالك سبعة أيام، نتجول فى المنطقة، ونسمع قصة

البترول ونجتلي آية العلم الذى كشف عن سر الصحراء ، يرافقنا فى جولتنا السيدان « الشيخ عبد الرحمن الشيبانى سكرتير سمو أمير الظهران ، وعبد الله القريشى » .

وكان قائد قوات الشرق الأوسط يزور ميناء « راس تنُّورة » فى جولة له بالخليج ، فدعانا مع الأمير تركى — أمير راس تنورة — لتناول الشاى على البارجة الأمريكية « دوكسبرى باى » .

وأمضينا يوماً بأكمله فى جولة بحرية بالخليج على ظهر زورق بخارى أعدته لنا إمارة « الدمام » وزودته بالطعام وكل وسائل الراحة .

وقبيل رحيلنا عن « الظهران » ، أقام لنا « السيد الشيخ عبد الله السليمان : وزير المالية » وليمة غداء فى بستانه الشهير بالدمام ، ثم تناولنا العشاء فى دار الإمارة مع حضرة « صاحب السمو الأمير عبد المحسن بن جلوى » وشهدنا فى المساء حفلة سمر بدار السيد مدير مطار الظهران .

وتفضلت الأميرة الكريمة حرم الأمير الشيخ عبد المحسن ، فاستقبلتنى فى دارها لتحيي فى شخصى بنات

الكنانة ، وكان لقاؤنا رمزاً لما بين مصر والجزيرة من أواصر القربى والجوار والمودة .

وبلغنا « القطيف » على ساحل الخليج العربى من شرق نجد ، فرحب بنا علماؤها وأعيانها ، واحتفلوا احتفالا كريماً بأول بعثة مصرية تصل إلى تلك البلدة التاريخية النائية .

* * *

وفى « الرياض » ، كان لقاؤنا بجلالة الملك العاهل « عبد العزيز آل سعود » الذى استقبلنا مرحباً « بأبناء مصر العزيزة والوادى الطيب » وتحدث رحمه الله عن قضايا الإسلام والعرب حديثاً مثيراً ومؤثراً . وتهدج صوته وهو يذكر محنة الأمة بمأساة التقسيم ، ويلمح على البعد نذر النكبة ، وبوده لو يقدم بنيه جميعاً فدية لشرف الأمة .

وخصنى جلالته بعطف كريم ، إذ لقبنى : « بأميرة الصحراء » .

* * *

ونقلتنا الطائرة إلى جدة فالمدينة ، حيث لبثنا هناك ثلاثة أيام فى جوار الحبيب المصطفى ، نطوف بالمشاهد المجيدة الخالدة لدار

هجرته ، ونسير حيث سارت خُطاه .

* * *

ثم عدنا إلى مصر . . .

عدنا نحمل أطيب ذكرى لأكرم ضيافة وأطيب رحلة . .

ومضت الأيام ومشاهد الجزيرة العربية تتراءى لى من بعيد، فأسترجع الذكريات المثيرة لرحلتى إلى « أرض المعجزات » : مهد العربية التى تجلت فيها آية إنسانيتنا الناطقة ، ومنزل الوحى الذى تجلت فيه آية الفجر الصادق من ليلة القدر التى غيرت بالإسلام تاريخ العالم ، وقررت مصاير دول وشعوب ، وعروش وتيجان ، وحضارات وديانات .

واليوم تتجلى فى صحرائها آية العلم ، تكشف عن سرها المطوى تحت كثبان الرمال وتدفع سيل الزيت دافقاً كالدم الحار فى شرايين الدنيا ، فتشارك فى تقرير المصير لعالم اليوم . . .

بنت الشاطئ

هليوبوليس } ١٣٧٠ هـ
١٩٥١ م

١

أرض المعجزات

- ليل الجزيرة ، وآية البيان
- الفجر الصادق ، ومعجزة الإسلام
- وراء الأسوار ، وآية العلم

— المعركة الكبرى

— وجهاً لوجه ، في قلب الصحراء

— ثورة في الصحراء

ليل الجزيرة ، وآية البيان

« خلق الإنسان . علمه البيان »

مرّت عليها القرون الطوال وهى قاحلة مجدبة ، رهيبة مرهوبة، يحوم حولها الخيال ثم يرتد عنها فزعاً مذعوراً ، لايكاد يميز بين صفير الريح فيها وعواء الوحش وعزيف الجان .

قال « ذو الرُّمَّة »(١) :

ورملٍ لعزف الجنّ فى عقداته
هريرٌ كتضراب المغنّين بالطبل

وتتراءى الأشباح للسارين بليلٍ ، فيجسمها الوهمُ لا يكاد يفرق فى العتمة بين قطع الظلام وقطعان الغيلان التى تسرح طليقة الفلاة .

وإذ غابت عنهم أسباب ما يلقون فى ليل الصحراء من غريب الظواهر ومباغتات الأخطار ، ردُّوها إلى هذه الكائنات الخفية التى تترصد لهم وتباغتهم فى شخوصٍ شتى .

---

(١) ذو الرمة : غيلان بن عقبة ، الشاعر الإسلامى البدوى وأحد عشاق العرب المشهورين .

وعكف السُّمَّار فى بوادى الجزيرة ينسجون من تهاويل الخيـــال أساطير مروعة ، عن أفاعيـــل الجن وألاعيب الغيلان . كما راح الشعراء يهيمون وراء الرؤى العجيبة ، مع توابعَ زعموا أنها تلم بهم من وادى الجن فى مجاهل القفر ، فتأتيهم بروائع النغم وعبقرىّ القصيد .

قال شاعرهم :

إنى وإن كنت صغيرَ السن ... وكان فى العين نُبُوٌّ عنى

فإن شيطانى أمـــير الجن ... يذهب بى فى الشعر كلَّ فن

وقال « حسَّانُ بنُ ثابت » فى جاهليته (١) :

ولى صاحبٌ من بنى الشيصبا ... ن فطوراً أقول وطوراً هوه

* * *

وكذلك مضوا يرهبون القفر ، ويتجنبون السير فى تلك الصحراء الموحشة ، إلا أن تدفعهم إليها ضرورات العيش ، حيث يتلمسون مواقع أقدامهم على حذر ، وهم يستعيذون من شر منْ فيها من الجن :

---

(١) حسان بن ثابت : الخزرجى الأنصارى المخضرم ، شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم .

قد استعذنا بعظيم الوادى من شرّ من فيه من العوادى

على أن منهم من تراءى له أن يستميل الجن إليه ثم يثوب إلى قومه يتحدث بالذى كان بينه وبينها من مواقف وصلات !

وللشاعر الصعلوك « تأبط شرًّا » مغامرات مع الجن معروفة [١]، صوّرها فى شعره من عطاء خياله. وقال شاعر منهم يصف جنًّا نزلوا به وهو يوقد لطعامه ، فدعاهم إلى الأكل فلم يلبوا الدعوة :

أتوا نارى فقلتُ : منون؟ قالوا : سراة الجن ، قلت : عموا ظلاما

وقلت : إلى الطعام ، فقال منهم زعيم : نحسد الإنسَ الطعاما

لقد فُضلتم بالأكل عَنَّا ولكنْ ذاك يُعقبكم سقاما

بل إن منهم من زعم أنه اتخذ له فى القفر مطايا من الجن :

وكل المطايا قد ركبنا فلم نجد
ألذ وأشهى من ركوب الأرانب!

وكذلك زعموا أن الجن ناحت على بعض موتاهم ، وتمثلت لهم الأحجار فى الفلاة صوراً وأشباحاً من الجان . نقل

---

(١) تأبط شراً : ثابت بن جابر ، شاعر جاهلى من الصعاليك انظر : (الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، والمفضليات للضبى) .

«أبو عبيدة ، معمر بن المثنى»[1] عن رجل من بنى طيئ أنه قال :

« رأيت قبر حاتم الطائى[2] ببقة[3] ، وهو جبل له واد يقال له : "الحابل" وإذا قدور عظيمة من أحجار مكفآت ناحية من القبر ، وهى التى كان حاتم يطعم فيها — يعنى الناس — وعن يمين قبره أربع جوار من حجارة ، وعن يساره كذلك ، ولهن شعور منشورة كالنائحات عليه ، لم يُرَ مثلُ بياض أجسامهن وجمال وجوههن ! مثَّلتْهن الجن على قبره ، فإذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه إلى طلوع الفجر ، فحينئذ يسكُنّ . . . قال : وربما مرّ المار فيراهن فيميل إليهن ، فإذا قاربهن رآهن أحجاراً » .

* * *

(١) أبو عبيدة : معمر بن المثنى التيمى ، من أئمة علماء اللغة فى القرن الثانى . (نزهة الألبا : ١٣٧ ، أخبار النحويين : ٥١ ، ٦٧) .

(٢) حاتم الطائى : ابن عبد الله بن سعد . الشاعر الجواد المشهور فى الجاهلية . راجع (الشعر والشعراء ١٢٣) .

(٣) بقة : موضع بديار بنى طيئ — وموضع آخر قرب الحيرة — انظره فى (معجم البلدان لياقوت) .

وقد بقيت هذه الرؤى والتصورات ، تشحن الوجدان العربى وتسيطر عليه دهراً طويلا ، فى القصص الشعبى ، وفى قصائد لشعراء إسلاميين .

وبقيت مغامرات الشعراء مع الجن فى مجاهل الفلاة ، تراثاً يتناقله الرواة من العصر الجاهلى ، حتى وصل إلى عصر التدوين الذى أبقى عليه ، لكونه من عصر أصالة الفصحى . وقد جمع « أبو عبيد الله المرزبانى » صاحب معجم الشعراء ، ما وصل منها إلى زمنه ، القرن الرابع للهجرة ، فى كتاب سماه (أشعار الجن) منه نسخة خطية بخزانة دار الكتب المصرية [١].

* * *

على أن الجزيرة فى ليل جاهليتها ، هى التى أعطت الدنيا اللغة العربية ذات الحيوية الفذة ، بعد أن هذبتها من قديمها الموغل فى أعماق الماضى ، ووصلت بها فى أواخر العصر الجاهلى إلى درجة نادرة باهرة ، من دقة الإحكام والصياغة وضبط الدلالات ، وعلو البيان . وجاء شعرها فى المرحلة المعروفة لنا ، قرنين قبل الإسلام ، متسق النغم مطرد الضوابط محكم البناء سخىّ الإلهام ، يمضى شاعرهم الجاهل الأمي

فى قصيدته حتى يبلغ بها مائة بيت وأكثر ، دون أن يختل النسق أو يضطرب الإيقاع . .

فما آذن ليل الجاهلية بمغيب ، حتى تجلت آيتها الكبرى فكانت أهلاً لشرف نزول المعجزة القرآنية بها ، تجلوها فى ذروة نقائها وعز أصالتها ومعجز بيانها .

وسارت مع الإسلام ، تفرض وجودها على الدنيا ، لغة ختام الرسالات ، ولسان دولته . واستطاعت بحيوية فائقة أن تستجيب لحاجات الحياة اللغوية لشعوب أمته ما بين المشرق والمغرب ، وأن تلبي مطالب التعبير عن الوجود الفكرى والعلمى للحضارة الإسلامية القائدة الرائدة . . .

الفجر الصادق

« اقرأ باسم ربك الذى خلق »

شاء الله أن يجعل من بعض بقاع هذه الجزيرة مهداً لخاتم الأنبياء ومبعثاً لآخر رسالات الدين ، ومنزل الوحى لمعجزة خالدة على الزمان ، فإذا شعاع من النور ينبثق من بين شعاب « مكة » وأباطحها ، مبشراً بفجر صادق ينسخ ليل الجاهلية الذى امتد وطال ، وإذا صوت الرسول العربى يهتف عالياً من غرب الجزيرة : الله أكبر . . !

فتتداعى الأصنام ، وينتثر حطامها على أرض الحجاز تحت موطئ المصطفى الداعى إلى التوحيد . . .

وأبلغ الرسول عليه الصلاة والسلام رسالته . فكان أول ما أوحى إليه منها فى غار حراء :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علَّم بالقلم. علَّم الإنسان ما لم يعلم »

فأصغت الدنيا وقد بهرها أن تكون كلمة : « اقرأ » مستهل الرسالة التى بُعث بها النبى الأمى فى العرب الأميين .

وأن يكون بدء اليقظة من الجاهلية الجهلاء : آية الإنسان والعلم ، ينزل بها الوحى من الله : « الذى علَّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم » .

* * *

وتكون يقظة واعية ، تذهل الدنيا ، وتدفع بلواء الإسلام مع هذه القلة المؤمنة من العرب البداة الجفاة ، أبناء الجزيرة المجدبة الماحلة الأمية ، إلى آفاق العالم ، وتورثهم فى فترة قصيرة لا تكاد تبلغ عمر فرد واحد ، مُلك أباطرة اليونان ، وقياصرة الروم وأكاسرة الفرس وفراعنة النيل . . .

ولم تكد الدنيا تفيق من ذهولها ، حتّى كان أبناء الصحراء يطوون الممالك بلواء الإسلام من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى ، وحتّى كان الهتاف الذى انطلق من حنجرة « بلال بن رباح »[1] غداة الهجرة ، ترجّعه عشرات الألوف من المآذن فى شتّى أنحاء الأرض ، فيستجيب لدعائه الملايين من شتّى أجناس البشر !

---

(١) بلال بن رباح : صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم ومؤذنه . راجع ترجمته فى طبقات الصحابة .

وكُتبت للغة العرب حياةٌ جديدة منذ نزل بها كتاب الإسلام الخالد ، معجزة النبي الأمى عليه الصلاة والسلام : فقد حملها ذلك الكتاب الكريم معه حيث سار ، ومكَّن لها فى مختلف الدُّنَى وبعيد الأقطار . فإذا قصائد البدو الرعاة ترددها الألسن جيلاً بعد جيل ، وإذا أحاديث الفتيان فى مسامر الجزيرة ودروب الصحراء ، تغدو تراثاً فنيًّا تعتز به دول وشعوب ، من مشرق ومغرب . .

ويظل القرآن الكريم يحمى وجود الأمة الإسلامية ويرهف وعيها ويضيء مسراها فى ظلمات المحن ، ويهدى خطاها على امتداد الزمان والمكان ، بنور الحق والخير والعلم والحكمة :

« هو الذى بعث فى الأميِّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتهِ ويزكيهم ويعلمهم الكتابَ والحكمة ، وإنْ كانوا من قبلُ لفى ضلالٍ مبين » .

صدق الله العظيم

وراء الأسوار

ومضت قرون قاربت أربعة عشر ، وملايين المسلمين يستقبلون المسجد الحرام فى « أم القرى » خمس مرات فى اليوم ، ومئات الألوف منهم يحجون إليها كل عام ، هاتفين من أعماق قلوبهم فى ضراعة وخشوع :

« لبيك اللهم لبيك . . .

« لا شريك لك لبيك » .

لكنهم ما كانوا يجاوزون الحجاز إلى نجد ، فضلاً عن أن يوغلوا فى أحشاء الدهناء والربع الخالى ....

وبقيت الصحراء خلال تلك القرون قائمة هناك ، بكل صمتها العميق وسرّها المرهوب ، تترامى وراء أسوار من جبال الحجاز الصخرية وتلال من كثبان الرمال ، وتمتد إلى سيف الخليج العربى فى عزلة موحشة ، لا تعرفها دنيانا وإن آمنت بدينها وبايعت نبيها ونطقت بلسانها واعتزت بلغتها . . .

بقيت الصحراء هناك ، لا يكاد يلم بها أحد سوى قبائل من البدو الرحل ، يهيمون فى أرجائها ملتمسين مواقع الغيث ومنازل

المطر ، وإن ظلت المدارس والجامعات فى أعرق عواصم العالم وحواضره الكبرى ، تدرس أدب الصحراء وتعلم طلابها قصائد الشعراء الجاهليين البداة ، وتقف بهم على ما وقفوا عليه من أطلال . . . وتحكى لهم مغامرات الصعاليك وملاهى الفتيان ، وتحدثهم عن نار حاتم[1] وناقتى طرفة والبسوس[2] ، ووقائع مهلهل[3] وعنترة[4] ، وتكاد تسمعهم رغاء الإبل وتصهال الخيل ونزع الأوتاد عند شد الرحال :

أجمعوا أمرهم عشاءً فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاءُ
من مُنادٍ ، ومن مجيب ، ومن تص
هال خيلٍ ، خلالَ ذاك رغاء .

---

(١) هى نار القرى التى كان حاتم يأمر غلامه بإيقادها فى ليل الفلاة .

(٢) طرفة بن العبد ، من شعراء المعلقات فى الجاهلية . وأكثر أبيات معلقته فى وصف ناقته .

والبسوس : خالة جساس بن مرة ، كانت لها ناقة مشئومة قتلها كليب سيد بنى بكر ، فقتله جساس التغلبى ، وشبت الحرب بين بكر وتغلب .

(٣) مهلهل بن ربيعة : أخو كليب وطالب ثأره .

(٤) عنترة بن شداد : العبسى ، من شعراء المعلقات . جاهلى فارس شجاع .

بقيت الجزيرة – فيما عدا أطرافها وقُراها – نائية مهجورة غامضة محجّبة ، لا تريد أن تتصل بالدنيا أو تبيح حماها لغير أهلها من الأعراب البداة ، قد آثرت العزلة على الاتصال بالعالم خارجها ، وأقامت بواديها الواسعة ورمالها التى لا يدركها الطرف ، أسواراً منيعة تحمى تقاليدها ، وأعرافها ، وأنماط حياتها ، غير مستجيبة لتطور الدنيا ولا مكترثة لسير الزمان .

وأستعير هنا كلمة « ر.ف. بودلى » فى كتابه[1] (الرسول) :

« لو أن أحد العرب القدامى عاد إلى تلك البقعة من الجزيرة لما وجد ما يثير دهشته : سيجد العرب فى خيامهم السود ، والبدو الرحل على ظهور إبلهم ، والرعاة يستسقون ، سيجد كل شىء فى مكانه كما تركه ، وملابس الناس كما كانت ، ومظهرهم الجسمانى لم يتبدل » .

ولقد جدّت على العالم من وراء أسوار الجزيرة ، أحداثٌ جسام غيرت وجه الحياة ، وتنقل الناس من عصر البخار ، إلى عصر الكهرباء ، ثم إلى عصر الذرة . . . من عصر الناقة ، إلى عصر القاطرة والباخرة ، ثم إلى الطائرة ، والجزيرة فى عزلتها الصامدة تتحدى كل تغيير ، وتمتنع على كل تطور ،

---

(١) ترجمه إلى العربية ، الأستاذان محمد محمد فرج ، وعبد الحميد السحار .

وتترامى صحاريها الثلاث : الدهناء والنفودُ والربعُ الخالى[١] ، حدًّا فاصلا بين عالم اليوم ، وتلك الصورةِ الباقيةِ من أقدم عصور التاريخ .

حياة فطرية ، ومشاهد لا تختلف فى شيء عن تلك التى عرفتها العرب البائدة منذ عهد موغل فى القدم ، ممتد إلى ما قبل التاريخ . . .

بحار من الرمال الناعمة ، تكاد تبتلع المارة لنعومتها وتخلخلها ، وقبائل من البدو الرحل الرعاة ، للمطر الشأنُ الأول فى حياتهم ، فهو حديث الناس ، أمرائهم وسوقتهم ، « وسؤال القادم يبدأ بالمطر والمرعى ، وكل من يعيش فى بلاد العرب يعرف الأثر العظيم الذى يحدثه المطر ، والتعاسة التى يسببها تأخره ، فأهل نجد لا يأبهون لشيء إذا رزقهم الله المطر تحيا به زروعهم وحيواناتهم ، وتشملهم السعادة بكل معانيها . . . »[٢] .

« أما الصحراء الجنوبية فربما لا يصيبها الرذاذ ساعة

---

(١) الدهناء صحراء شرق نجد ، والنفود شمالها ، والربع الخالى جنوبها .

(٢) السيد حافظ وهبة : جزيرة العرب — ٥١ .

واحدة كل ثلاث سنوات أو أربع »[1] . .

وهم مع ذلك راضون عنها متشبثون بها ، وربما عرضت لهم فرصة الحياة الناعمة فى حضر ، فأبوا أن يستبدلوها بحياتهم الشاقة الكادحة المضنية ، الخشنة الجافية ، تلك التى تقصر الأجل لكنها تهب مع العمر القصير نعمة الحرية والانطلاق . . .

وشهد الزمان عجباً من العجب : شهد المصريين فى وادى النيل غيرَ بعيد من الضفة الغربية للبحر الأحمر ، يشيدون المعابد الشامخة والأهرام والمقابر الصامدة ، منذ آلاف السنين ، وعلى الضفة الشرقية من هذا البحر ، بُداة رُحَّل ، لا يعرفون غير الخيام ، ولا يفهمون — فى القرن العشرين — فائدة الأبواب والنوافذ الخشبية : « حتى إن البدو الذين كانوا فى جيش الملك حسين فى الثورة العربية ، إبان الحرب العظمى الأولى ، كان عملهم بعد الاستيلاء على الطائف[2] ،

---

(١) جزيرة العرب : ٦ .

(٢) الملك الحسين : الشريف الهاشمى ، كان ملك الحجاز حتى انتصر عليه النجديون بقيادة « عبد العزيز آل سعود » عام ١٩٢٥ .

والطائف : بلدة فى ثقيف ، على بعد ١٢ فرسخاً من مكة . طيبة الهواء عذبة المياه معشبة الرياض . انظرها فى : معجم البلدان لياقوت .

نزع خشب النوافذ والأبواب ، لا لبيعها والانتفاع بثمنها ، بل لاستعمالها وقوداً إما للقهوة أو الطبخ أو التدفئة . وبدو نجد قد فعلوا مثل ذلك تماماً : فعندما أسكنت الحكومة السعودية بعض القبائل فى ثكنة جرول ، اكتشفت أن النوافذ الخشبية والأبواب تنقص بالتدريج ، وأنها استعملت للطبخ وتحضير القهوة ، فأخرجهم جلالة الملك توًّا من الثكنة ، وأسكن الحضر فيها ، والحضر بطبيعتهم يفهمون مالا يفهمه البدو عن النوافذ والأبواب »[1] .

وحين كان المنطاد « جراف تسبلين » يحلق فى أفق الشرق الأوسط عام ١٩٣٠ ، والطائرات تغدو بعده فى سماء المنطقة وتروح ، كان عرب الجزيرة يرون التلغراف اللاسلكى من صنع الجن ، ويشفقون على عاهلهم الملك عبد العزيز من عواقب الإصغاء إلى جند الشيطان ، الذين يزينون له استخدام السيارة واللاسلكى !

كتب « السيد حافظ وهبة : الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية بلندن » : أن جلالة الملك أوفده للمدينة – عام ١٩٢٨ – مع عالم من علماء نجد ، للتفتيش الإدارى

---

(١) جزيرة العرب : ١٦ .

والديني ، « فجرى ذكر التلغراف اللاسلكي وما يتصل به من المستحدثات ، فقال الشيخ : لا شك أن هذه الأشياء ناشئة من استخدام الجن ، وقد أخبره ثقة أن التلغراف اللاسلكي لا يشتغل إلا بعد أن تذبح عنده ذبيحة ، ويذكر عليها اسم الشيطان ! ثم أخذ يذكر لي بعض القصص عن استخدام بني آدم للشيطان . ولقد كان شرحي لنظرية التلغراف اللاسلكي وتاريخ استكشافه ، ليس له نصيب من إقناع الشيخ ، فلم أجد أية فائدة من وراء البحث ، فسكتُّ على مضض . . .

« وفي يوم من الأيام ، دعاني الشيخ لمرافقته لزيارة قبر حمزة عم الرسول عند أُحُد[1] . . . وفي أثناء الطريق أوقفت السيارة عند محطة التلغراف اللاسلكي ، وهنا سأل الشيخ : لماذا أوقفت السيارة ؟ فأجبته : لنرى التلغراف اللاسلكي ، فإن كان هنالك ذبائح ودعوة لغير الله ، فإني سأحرقه مهما

---

(١) حمزة : ابن عبد المطلب بن هاشم ، عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، قتل شهيداً يوم أحد بين المسلمين والكفار من قريش ، بتحريض هند بنت عتبة ، زوجة أبي سفيان وأم معاوية . راجع (السيرة لابن هشام ١٦/٣) و (طبقات الصحابة) .

وأحد : جبل قرب المدينة المنورة من الشمال ، وبه سميت معركة أحد . راجع (الطبري ، حوادث سنة ٣ هجرية) ، والجزء الثالث من (السيرة النبوية لابن هشام) . طبع الحلبي .

تكن النتيجة ، فالدين لله لا لابن سعود ، وقد يكون الملك مخدوعاً فى أمر هذه التلغرافات ، وتذكر له الأشياء على غير حقيقتها . فقال الشيخ : بارك الله فيك .

« فدخلت المحطة ، وبعد البحث لم يجد الشيخ أى أثر لعظام الذبائح وقرونها أو صوفها ، ثم أراه العاملُ طريقة المخابرة ، وفى دقائق تبودلت المخابرات والتحيات بينه وبين جلالة الملك فى جدة[١] .

« كانت هذه الزيارة البسيطة مدعاة للشك فيما كان يعتقده من عمل الشيطان فى المخابرات ، ولكنه ظن أنى ربما دبرت هذه المكيدة بإيعاز من الملك ، فزار الشيخ محطة التلغراف بضع مرات منفرداً فى أوقات مختلفة بدون أن يخبر أحداً بعزمه ، فكان يفاجئ العامل بالزيارة ويسأله عن كل ما يغمض عليه . . . .

«وعندما وُضعت الآلةُ اللاسلكية فى الرياض[٢] واستعملت ، كان الناس يغرى بعضهم بعضاً بأن إنشاء هذه المحطة هو

---

(١) جدة : ميناء مكة على ساحل البحر الأحمر .

(٢) الرياض : كبرى حواضر نجد ، وعاصمة المملكة العربية السعودية .

الحد بين الخير والشر ، وكان العلماء يرسلون من يأتمنونهم لزيارة المحطة ورؤية الشياطين والذبائح تقدم لهم ، فلم يجدوا شيئاً .

« وقد أخبرنى عامل المحطة بأن بعض المشايخ الصغار ، كانوا يترددون عليه من وقت لآخر ، لسؤاله عن موعد زيارة الشياطين ، وهل الشيطان الكبير فى مكة أو الرياض ؟ وكم عدد أولاده الذين يساعدونه فى مهمة نقل الأخبار ؟ فكان يجيبهم بأن ليس للشياطين دخل فى عمله . وكان بعضهم يغريه بالنقود ، وأنهم سيكتمون هذا السر . . . »[١] .

ولم تكن السيارات ولا الدراجات ، أسعد حظًّا من اللاسلكى ، فركوب الدراجة — وتسمى بلغة نجد : عربة الشيطان أو حصان إبليس — كان حتى عهد قريب ، إثماً ومعصية ، فهى بدعة ، تسير بقوة السحر وعمل الشيطان ، بدليل أن الراكب إذا نزل لم تقف ! وكان الإخوان يرون من حقهم — أو من واجبهم الدينى — منع هذا الإثم ، وضرب راكب الدراجة ولو كان من خدم الملك !

وحدث فى نجد ، منذ أقل من قرن ، أن أول ساعة دقاقة كُسرت ، وعُدّت من عمل الشيطان . ولما شاع

---

(١) جزيرة العرب : ٣٠٨ .

ظهورها قامت قيامة الإخوان من مشايخ نجد ، منكرين استعمالها ، معلنين « أن أقل الأحوال فيها أنها بدعة » . حتى اضطر أحد المشايخ ــ الشيخ سعيد بن سحمان ــ أن يرد عليهم فى رسالة كتبها عام ١١٣٤ هـ ــ ١٩١٦ م وطبعت فى مصر عام ١٩٢٣ .

المعركة الكبرى

« من اليوم سنحيا حياة جديدة »
الملك عبد العزيز

فى مثل هذه العزلة عن الدنيا والحياة، كان العرب من سكان بادية الجزيرة يعيشون فى معقلهم وراء الأسوار ، يشهرون السلاح فى وجه كل تطور ، ويدفعون البدع العصرية بالسيف .

وكانت تلك هى المعركة التى خاضها المغفور له ، الملك عبد العزيز آل سعود . .

وأراها المعركة الكبرى ، وإنى لأذكر ما يملأ تاريخ العاهل الراحل من معارك جسام ، كتلك التى استرد فيها « الرياض » من خصمه القوى اللدود « ابن الرشيد »[1] وكان جيش عبد العزيز

---

(١) محمد بن الرشيد ، كان شيخ قبائل شمر شمالى نجد ، ثم طمع فى « الرياض » عاصمة نجد أيام عبد الرحمن آل سعود وما زال حتى استولى عليها عنوة بعد معارك عدة ، وظلت خاضعة له إلى أن استردها المغفور له عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود .

راجع كتاب (عاهل الجزيرة) للأستاذ عبد الرحمن نصر ، ١٢ وما بعدها .

الذى هاجم به معقل العدو واسترد عاصمة نجد ، قلة من الرجال عدتهم أربعون رجلا ، أبقى أكثرهم عند سور البلدة ، وهاجم فى خمسة عشر رجلا من صحبه ، عاملَ « ابن الرشيد » فى حصنه ، وبين جنده وحرسه ، فما انتصف النهار حتى أذن المؤذن : أن الحكم لله ثم لعبد العزيز ، وأن عجلان — عامل ابن الرشيد — قد قتل . . .

والمعركة الأخرى التى لقى فيها عبد العزيز ، الشريفَ حسين ملك الحجاز ، عام ١٩٢٥ ، فهزم جنده فى الطائف ثم دخل مكة ظافراً دون حرب ، ومن بعدها دخل المدينة ، فجدة : آخر معقل للأشراف . . .

أذكر هذه المعركة وتلك ، ومثلهما معهما ، لكنى مع هذا أسمى حركة تحضير البادية « المعركة الكبرى » ، لأن الملك عبد العزيز كان فيها يلقى إخوانه وعشيرته ، وحلفاءه ورعاياه ، وما أشق النضال حين يكون ضد أخ وحليف !

إنه يقف الآن وجهاً لوجه أمام « الإخوان » النجديين ، الذين انتصر بهم على أعدائه ، والذين قالوا له عندما تردد فى قتال الأشراف : « يا للعجب ! أليسوا محاربين لنا ؟

أليس كبيرهم يحول بيننا وبين أداء فريضة الحج ؟ فما بال ابن سعود يأمرنا بالكف عنهم ؟ وما له وما لنا ؟ إننا نقوم بفريضة الجهاد ، فمن عاش رجع غانماً ، ومن مات لقى ربه شهيداً وهو عنه راض » .

وهم هم الذين اندفعوا نحو الحجاز مستبسلين ، فما زالوا يحاربون حتى هزموا جنود الملك حسين هزيمة حاسمة . . .

والآن وقد دانت الجزيرة لعاهلها عبد العزيز ، يخوض معركته الجديدة أمام « الإخوان » وهم جنده وأنصاره وعشيرته . .

ومثل هذه المعركة لا تعرف المواقف الحاسمة ، وإنما هى أدوار تتعاقب ونضال يتجدد كلما بدا لعاهل الجزيرة أن ينتفع بأحد المخترعات الجديدة ، أو يعترف بما استحدث العلم من أجهزة وآلات . .

وقد ظل العاهل فترة طويلة ، متردداً بين رغبته فى الإصلاح ومسايرته للإخوان ، وصابرهم أمداً وهم يتمادون فى إنكار كل إصلاح ، فيسايرهم حيناً ، ويحاول إقناعهم بالحجة حيناً آخر ، كاظماً غضبه .

أراد جلالته أن يمد سلكاً برقيًّا بين مكة ومعسكره فى

« جُداء » — والمسافة بينهما تقطع فى ثمانى ساعات ذهاباً وإياباً على ظهور الخيل والإبل السريعة — لكنه اضطر إلى أن يرجئ المشروع ، كيلا يهيج ثائرة الإخوان الذين كانوا يقطعون أسلاك البرق « لأنه منكر تجب إزالته » .

ثم عمد إلى ملاينتهم ومحاولة إقناعهم بالحجة ، فدعا زعماءهم إلى مؤتمر « بالرياض» فى يناير ١٩٢٧ م ، فاستخلص من علماء نجد الفتوى المشهورة :

« أما مسألة البرق فهو أمر حادث فى آخر الزمان هذا ، ولا نعلم حقيقته ، ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم ، فتوقفنا فى مسألته ، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم ، والجزمُ بالإباحة أو التحريم يحتاج إلى الوقوف على حقيقته » .

لكن الإخوان تمادوا فى ثورتهم على الإصلاح ، إلى حد دفع الملك إلى اصطناع الحزم معهم . حدّث جلالته : « أن المشايخ حضروا عنده لما علموا بعزمه على إنشاء محطات لاسلكية فى الرياض وبعض المدن الكبيرة فى نجد . فقالوا له : يا طويل العمر ، لقد غشك من أشار عليك باستعمال

التلغراف وإدخاله إلى بلادنا ، وإن "فلبى"[1] سيجر علينا المصائب . . . فقال لهم الملك : لقد أخطأتم فلم يغشنا أحد ، ولست ولله الحمد بضعيف العقل أو قصير النظر لأخدع . . وما "فلبى" إلا تاجر وكان وسيطاً فى هذه الصفقة . . . إخوانى المشايخ : أنتم الآن فوق رأسى ، تماسكوا بعضكم ببعض ، لا تدعونى أهز رأسى فيقع بعضكم أو أكثركم ، وأنتم تعلمون أن من وقع على الأرض لا يمكن أن يوضع فوق رأسى مرة ثانية . مسألتان لا أسمع فيهما كلام أحد لظهور فائدتهما لى ولبلادى ، وليس هنالك من دليل أو سنة يمنع من إحداث اللاسلكى والسيارات » .

غير أن هذا لم يحسم النزاع ، « فلقد نال بعضهم الإمامَ بموالاة الكفار والتساهل فى الدين ، وأنكروا عليه تطويل الثوب والشارب ولبس العقال إلى غير ذلك من ضروب الجهالة ، وأصبحوا يحرمون كل ما لا يتفق وهواهم . . . حتى كادت تقع

---

(١) فلبى : سانت جون ، كان ضابطاً سياسياً فى دار المندوب السامى ببغداد ، أوفده الإنجليز لمفاوضة ابن سعود عام ١٩١٧ إبان الحرب العظمى ، والمعركة فى الميدان الشرقى دائرة بين الترك والإنجليز . وقد أسلم فلبى وتسمى باسم عبد الله .

(انظر كتاب عاهل الجزيرة ، ص ١١٨ وما بعدها) .

فتنة أهلية بين الإخوان من جهة ، والحكومة والحضر من جهة أخرى ، فجرد العاهل كتيبة من طلبة العلم المتفقهين في دينهم ، وأرسلهم إلى الإخوان كي يصلحوا ما أفسد الجامدون » .

وبلغ الأمر مداه ، وعيل صبر الملك ، فأرسل جنده في مستهل عام ١٩٣٠ ، لتأديب العصاة الذين طغوا وعاثوا فساداً باسم الدفاع عن الدين ، وجيء بزعيم العصاة ، "الدويش" ، بعد معركة « أم الرضمة » في سيارة إلى خيمة الملك ، فكانت اللعنات من أتباعه الأسرى تُصب عليه بسبب ركوبه السيارة ! [١] .

وكان مما قاله الأسير يومئذ :

« يعلم الله يا عبد العزيز أنك لم تقصر معنا ، وقد فعلتَ كل ما يبيض وجهك ، وقابلنا معروفك بالإساءة . لقد فررنا من وجهك إلى الكفار ، فحملونا إليك في طيارة من طياراتهم ، ويكفي ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الإخوان بعدما كنت عزيزاً محترماً » .

---

(١) كان فيصل الدويش من زعماء القبائل وكبار الإخوان ، خرج على ابن سعود عام ١٩٢٩ وظل يقاتل مستبسلا ، حتى إذا حاقت به الهزيمة ، هرب إلى الكويت وسلم نفسه لدورية بريطانية أعادته إلى الملك عبد العزيز . راجع كتاب (عاهل الجزيرة) ص ٢٢١ : ٢٢٨ ط مصر .

ولقد عَدّ بعض الكتاب ، معركة « أم الرضمة » وما تلاها من استسلام الدويش للملك عبد العزيز ، « من المعارك الفاصلة بين الفوضى والنظام » ، كما عدّوا نصر الملك فيها على الإخوان : « نصراً للتقدم على الرجعية » .

وأصغت الجزيرة كلها إلى كلمة عاهلها بعد النصر :

« من اليوم سنحيا حياة جديدة »

* * *

لكن الواقع أن تحضير البادية ، لم يكن ليتم باستسلام هذا الثائر أو النصر على ذاك المتمرد ، ولا كان بحيث يتقرر فى هذه المعركة أو تلك ، وإنما هو الصراع المستمر المتحفز ، يتجدد مع كل « بدعة» من مستحدثات العلم ، وقد يكمن فترة ، ليعود بعد حينٍ أعنفَ وأحدّ ضراما . . .

والذى حدث بعد هزيمة المتمردين ، أن حركة التعمير والإصلاح سارت بطيئة فى وجه مقاومة قوية من الأعراف والتقاليد ، والعادات والإلف ، والتشبث بموروث الأوضاع ، والتعصب لعزلة الجزيرة . ولقد أعلن الملك عبد العزيز بدء « الحياة الجديدة » فى يناير ١٩٣٠ ، ومع ذلك ظلت البادية تنظر فى ريبة وحذر إلى كل حركة من حركات التحضر ،

وتحاول أن تدفع منكرات « البدع » باللسان أو القلب ، بعد أن أعجزها دفعها باليد . . .

وبدا كأن الصحراء فى حاجة إلى معجزة جديدة ، تضع حداً لهذه الحرب الخفية المستمرة ضد العلم ، وتمكن لعاهل الجزيرة من تنفيذ رغبته فى إصلاح حاسم النتائج ، بدلا من هذه الخطوات البطيئة الحذرة ، المهددة بهجوم مضاد من الرجعية ، يعيدها القهقرى مجهدة مقهورة .

* * *

هل قلت إن المعركة كانت ضد المستحدثات من بدع الأجهزة والآلات ؟ إنى إذن لم أقل كل الحق ، فالواقع أن الصراع كان أعمق من هذا وأوسع مجالاً ، وقد تجاوزَ البدع المخترعة إلى أساوب العيش ومواد التعليم ، ونفذ إلى الصميم ، فى كل كبيرة أو صغيرة من حياة الجزيرة . .

وقد ذكرت آنفاً ، كيف « نال بعضُهم الإمامَ بموالاة الكفار والتساهل فى الدين ، وأنكروا عليه تطويل الثوب والشارب ولبس العقال » ! ولنا أن نتصور مدى ما كان يحتاج إليه المصلح من جهد وجلد ووقت ، لكى يتغلب على

قوم ضجوا لأن المدارس تريد أن تفتن التلاميذ عن العلم ، وما العلم الحق فى رأيهم إلا « التفسير والحديث والفقه وعلم العربية والتاريخ الإسلامى » . وكان من مظاهر هذه الضجة ، أن « اجتمع علماء الدين من النجديين عام ١٩٣٠ ، وتشاوروا فى الأمر ، ثم أصدروا قراراً يحتجون فيه على إدارة المعارف فى مكة لأنها قررت فى برنامج التعليم : الرسم ، واللغة الأجنبية ، والجغرافية » :

ولم ير جلالة العاهل من الحكمة أن يمضى فى سبيله غير مكترث لضجة العلماء ، بل بعث رسولا إلى « كبار المشايخ » ليجلو لهم الأمر ، ويبحث معهم فى شأن هذه المسائل التى طلبوا إلغاءها من برامج التعليم .

وقال قائلهم :

« لقد بينا للإمام عبد العزيز الأدلة والمفاسد التى تترتب على تقرير هذه العلوم : أما الرسم فهو التصوير وهو محرم قطعاً ؛ وأما اللغات فإنها ذريعة للوقوف على عقائد الكفار وعلومهم الفاسدة ، وفى ذلك ما فيه من الخطر على عقائدنا وعلى أخلاق أبنائنا ؛ وأما الجغرافية ففيها كروية الأرض

ودورانها . والكلام على النجوم والكواكب : مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف » .

والذى يلفتنى من هذا . هو أن الثورة على تدريس الرسم والجغرافية بمدارس الجزيرة ، حدثت بعد هزيمة « الإخوان » الرجعيين ، واستسلام « فيصل الدويش » ، فهل عَدَوتُ الحقّ حين قدَّرتُ أن معركة « أم الرضمة » بين الملك عبد العزيز والإخوان . لم تكن حاسمة ولا فاصلة ، بين الرجعية والتجديد ؟

لقد كان علماء نجد يحرمون دروس المنطق والفلسفة ، « وينكرون على بعض المتعلمين قراءة الصحف السيارة ، ويرون المثل الأعلى للعلماء أن يصرفوا أعمارهم فى الرد على مخالفيهم من الطوائف » .

من ثَم ، أرادوا لإمامهم عبد العزيز أن يشغل بالدفاع عن مذهب الوهابيين . والجهاد فى سبيل نقاء العقيدة الإسلامية من شوائب أهل البدع ، وحماية الجزيرة من كل عنصر دخيل . . .

* * *

هكذا مضت الأعوام ، والحجاز — فى طرف الجزيرة

الغربى — مقصد الحجاج من شتى بقاع الأرض ، ومهوى أفئدة المسلمين فى كل مكان ، والجزيرة من ورائه تناضل عن عزلتها ما استطاعت ، وتقاوم الجديد ما وجدت إلى المقاومة سبيلا . . .

ولم يكن أحد يتوقع أن سيجىء يوم يدوى فيه اسمها فيسمع له رنين أقوى من رنين الذهب ، وتنكشف الفلاة الموحشة المهجورة عن كنز ثمين مطمور تحت الحصا والرمال . . .

وجهاً لوجه
فى قلب الصحراء !

« علم الإنسان مالم يعلم »

كانوا أشبه بفريق من المغامرين ، نزحوا من العالم الجديد فى مستهل الثلث الثانى من القرن الحالى ، ونصبوا خيامهم بين « النهدين والظهران »(١) على حافة الربع الخالى .

هناك . . حيث لا ظل ولا ماء ، وإنما هو المهمه القفر يمتد عن يمين وشمال ، ومن الأمام والخلف ، رهيباً ، ماحلا ، موحشاً ، تتلوى خيوط الرمال فوق أديمه كأنها الثعابين ، وتعوى الريح على أعالى قممه وكثبانه ، فتجاوبها من السفوح والقيعان شتى الأصداء كأنها عزيف الجان . .

نصبوا خيامهم هناك منبوذين بالعراء ، حيث الضوء الساطع من شمس الظهيرة يعشى الأبصار ، والظلمة الحالكة فى ليل الفلاة تخلع الأفئدة . قد هجروا الأهل والولد ، ونبذوا ترف الدنيا

(١) جبال النهدين والظهران : مرتفعان فى الجنوب الشرقى من نجد ، قرب ساحل الخليج العربى ، على حافة الربع الخالى .

الجديدة وراء ظهورهم فى سبيل الكشف عن منابع للبترول قد تكون مطمورة فى بقعة ما من هذه الفلاة الموحشة . .

وكان رواد آخرون قد سبقوهم إلى هنالك ، فى شتاء عام ١٩٣٠ ، ونقبوا عن الزيت فى الشمال الغربى من الجزيرة ثم مضوا عن الصحراء يائسين بعد أن أذابوا فى رمالها الملتهبة أكداساً من المال ، مختلطة بالعرق المتصبب والجهد الضائع . فجاء هؤلاء على أثرهم يستأنفون التجربة الخاسرة بأمل جديد .

وكانت منطقة « الأحساء »[١] وجهتهم هذه المرة ، فشقوا إليها ما يقرب من ألف ميل عبر الصحراء القاحلة ، موفدين من قبل شركة « ستاندرد أويل كومبانى أوف كاليفورنيا » وهى الشركة الوحيدة التى قبلت أن تتبنى هذه المغامرة ، وأن تدفع ثمنها الباهظ ، فى سبيل « كنز » مجهول .

وفى اليوم الثالث من سبتمبر عام ١٩٣٣ ، وصل مدير الشركة إلى « الظهران » بعد توقيع اتفاقية الزيت مع مندوبى الحكومة السعودية ، وجاء معه بالآلات والرجال لمباشرة التنقيب ،

---

(١) الأحساء : منطقة منخفضة شرقى نجد والدهناء ، وفيها تقع منطقة البترول .

التمهيدى ، وبدأ الحفر فعلا فى آخر أبريل ١٩٣٥ . . .

* * *

عكفوا على تلك الرمال القاسية والصخور الجرداء ، ينقبون ويبحثون ، بين قيظ يشوى اللحم ويصهر العظم ، وزمهرير يجمد الدم ويثلج البدن ، منقطعين عن الدنيا بعيدين عن العمران ، يحيط بهم الخراب الموحش من كل جانب ، وترمقهم عن كثب عيون حديدة البصر ثاقبة النظرات ، تحصى عليهم كل حركة وسكنة ، وترقب سير العمل فى حذر وارتياب . . .

تلك هى عيون العرب الذين التقى بهم الأمريكان وجهاً لوجه فى قلب الصحراء ، فكان صراع غير سافر ولا صريح . .

* * *

خمس سنوات من الجهد المضنى والحياة الكادحة ، أذابت الرمال فيها خمسة عشر مليوناً من الدولارات قبل أن تبيح لهؤلاء المتعبين قطرة من ذهبها الأسود ، أو تأذن لهم بلحظةٍ من راحة واستقرار .

خمس سنوات قضاها المنقبون عن الكنز فى مجاهل الجزيرة يحفرون البئر بعد البئر ، وينتقلون من قفر إلى قفر ، والصحراء

ضنينة بسرها ، مناضلة عنه ، لا تقدّم لضيوفها الغرباء إلا القيظ والزمهرير ، والصخور والرمال ، والوحشة والملال ، ولا تكف عنهم ملاحقة حرّاسها الغلاظ الأشداء ، الذين شق عليهم أن تطأ أرض الجزيرة قدم كافر ملعون . . .

لكن الباحثين عن البترول ، كانوا يدركون أن عدوهم الألد هو اليأس ، ومن ثم راحوا يحاربون هذا العدو فى أنفسهم ، ويخشونه أكثر مما يخشون حراس الصحراء ووحوش الفلاة . .

أما التعب ، وأما الملل ، وأما خشونة العيش وقسوة الحياة ، أما كل هذا فداخل فى الحساب .

وهل كانوا يجهلون يوم نزحوا من أمريكا أنهم ملاقون هذا كله ومثله معه ؟

* * *

وأبى عليهم إصرارهم العنيد ، أن يستسلموا للهزيمة بعد فشل التجربة الأولى ، والثانية ، والثالثة ، والرابعة ، والخامسة . . .

وأكبوا من جديد على الرمال الكاوية ، يحفرون البئرين السادسة والسابعة . . .

وكانت معركة ، تلاقى فيها جبروت العلم مع جبروت الصحراء ، فتم النصر للعلم . . .

هنالك كشفت الصحراء عن سرها الخطير ، وأباحت كنزها لمن دأبوا على البحث عنه فى عناد وإصرار . .

وتمت المعجزة فى صحراء الجزيرة التى أصغت منذ نحو أربعة عشر قرناً إلى آية الوحى الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق »

فسبَّحت باسم الله الذى « علم الإنسان مالم يعلم » . . .

انتصر العلم وأثمر الجهد هذه المرة ، فأذاع البرق فى اليوم الثانى عشر من مارس عام ١٩٣٨ ، نبأ حفر أول بئر منتجة للبترول فى «الظهران» ثم توالت الأنباء من بعد ذلك ، معلنة عن اكتشاف آبار أخرى فى « بقيق » على بعد ٣٧ ميلا جنوب غربى الظهران ، و « أبى حدرية » على بعد ٩٥ ميلا إلى الشمال ، و « القطيف » على ساحل الخليج .

وهذا بيان بالحقول المكتشفة فى الأعوام الأولى :

الدمام[1] ، الظهران : اكتشف فى عام ١٩٣٨ ، ومساحته تسعة آلاف فدان ، وعمقه ٤٥٠٠ قدم. وعدد آباره اثنتان وثلاثون .

أبو حدرية : اكتشف عام ١٩٤٠ وترك مغلقاً .

بقيق : اكتشف عام ١٩٤١ ومساحته ٧٧ ألف فدان ، وعمقه

(١) لمعرفة هذه الأماكن ، راجع الخريطة المرفقة .

١١ ألف قدم ، وعدد آباره ثمانى عشرة .

القطيف : اكتشف عام ١٩٤٥ ، وعمقه ٧٣٠٠ قدم ، وآباره اثنتان .

ومن ثم بدأ سيل الذهب الأسود ينبثق من جوف الرمال سخيًّا دافقاً لا ينضب .

وعلى هذه الرمال الملتهبة ، تحت شمس الصحراء المحرقة ، وفى قلب الفلاة المهجورة الموحشة ، قامت معامل ضخمة تدفع سيل الزيت فى أنابيب تمتد أميالا إلى موانى التفريغ فى الخليج العربى والبحر الأبيض المتوسط .

* * *

ولم يكن التفريغ أمراً هيناً . . .

أما فى الخليج ، فحين جاءت ناقلات البترول لتحمل هذا السيل الدافق ، عاقها هناك عائق من طبيعة الإقليم ، ولم تستطع أن تصل إلى الساحل عند فرضة « الدمام » — ميناء الظهران — لأن مياه الخليج هناك ضحلة قريبة الغور . . .

لكن العلم لم يعجزه أن يصل الصحراء بقلب الخليج حيث ترسو الناقلات ، بل تقدم فبنى ميناء ضخمة تمتد ثمانية أميال فى عرض الماء . .

وكذلك عزّ على العلم أن تقطع حاملات البترول نحو ثلاثة آلاف ميل ، كى تصل إلى البحر المتوسط عن طريق خليج عدن والبحر الأحمر وقناة السويس ، فى طريقها إلى أسواق الغرب ، على حين لا تزيد المسافة — عبر الصحراء — بين منابع الزيت فى الظهران ورأس تنورة ، وموانى الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، على ألف وسبعين ميلا . . .

ومُدّ خط الأنابيب من شرق الجزيرة ، متجهاً شمالا بغرب إلى « تل الحبر » بالقرب من حدود الأردن ، ومواصلا سيره فى نفس الاتجاه عبر الأردن وسوريا ، إلى « ميناء صيدا » على ساحل لبنان !

ويبلغ قطر الأنابيب فى هذا الخط ثلاثين بوصة ، وقد صنعت بحيث تحتمل الامتداد والانكماش مع اختلاف درجات الحرارة . . .

ويستطيع هذا الخط الحصين أن يدفع إلى الميناء يوميا ثلثمائة ألف برميل ! [١] .

---

(١) من شاء أن يعرف مزيداً عن حركة البترول فى هذه المنطقة فليراجع كتاب (المملكة العربية السعودية : تأليف كارل تويتشل) ترجمه السيد شكيب الأموى ، وطبع فى دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

وازداد تدفق الزيت يوماً بعد يوم ، وسجلت الإحصاءات الرسمية وثبة الإنتاج من ٥٨٠ ألف برميل عام ١٩٣٩ إلى خمسة ملايين عام ١٩٤٠ ، ثم إلى واحد وعشرين مليوناً وثلثمائة ألف برميل عام ١٩٤٥ ، إلى مائة وثلاثين مليوناً وتسعمائة ألف برميل عام ١٩٤٨ !

وما تزال هناك آبار مغلقة لم تستغل بعد . . .

وتدفقت الثروة مع الزيت ، فإذا بالصحراء المجدبة القاحلة الماحلة ، تجود بملايين الجنيهات كل عام ، يذهب نصفها — بمقتضى الاتفاقية الأولى — إلى المملكة السعودية مالكة الصحراء ، ويبقى النصف الآخر لشركة « أرامكو » صاحبة الامتياز .

وآن للمغتربين المتعبين أن يظفروا فى تلك الفلاة الكئيبة الموحشة بحياة لا تقل عن حياتهم الأولى فى أمريكا رغداً وترفاً ، ولحقت الأسر برجالها بعد أن غدت هذه المنطقة من صحراء الجزيرة ، مزدهرة العمران .

* * *

لكن . . .

هل خف الصراع بين الشرق والغرب ، بين العرب والأمريكان ؟ . . . كلا . . . إنه باق هناك محتدم ، وإن

لم يبد كذلك! ويخطئ الذين يتوهمون أن الأمريكان قد غلبوا العرب على أمرهم هناك . . .

فما تزال العيون السود تلاحق أولئك الغرباء بنظرات مرتابة ملؤها الشك والحذر : نظرات ساهرة تحرس تراث الجزيرة وتقاليد العرب وشريعة الإسلام ، وتحمى إيمان البدو من سحر الغزو . . .

ولا تكاد لحظة تمر ، دون أن تُذكر الجزيرةُ هؤلاء الغرباءَ بأنهم أجانب دخلاء ، جاءت بهم ضرورة اقتصادية تقدر بقدرها ، ولا يجوز لهم أن يتخطوا الأسوار التى بناها عاهل الجزيرة لصد تيار الغزو ، وأقام عليها الحراس الأشداء . . .

وهى أسوار تسمح للمدنية الغربية أن تعمر الصحراء ، وتستجلب لها ما شاءت من مستحدثات الأجهزة والآلات ، لكنها لم تسمح بتسلل عنصر دخيل ، يفسد أصالة العربى ، أو يمسخ تقاليده ، أو يستعمر أرضه :

فلا بأس على الجزيرة مثلا ، إن هى استوردت أحدث الطائرات من مصانع الغرب ، لكنها لا تأذن بإطلاقها فى سمائها إلا بعد أن تطبع عليها شعارها القومى :

« لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . . .

* * *

في حدود هذه الأسوار ، يعيش الأجانب في شبه عزلة ، لهم أحياؤهم الخاصة بمدارسها وملاعبها ومطاعمها وأنديتها ومستشفياتها ، لا يكاد يسمح لهم بأن يندمجوا في أهل البلاد خارج منطقة العمل . . . .

ويوم العطلة هناك هو يوم الجمعة لا الأحد ، للعرب والأمريكان والأوربيين على السواء .

والتقويم الهجرى هو السائد في مصانع « أرامكو» ومعاملها ومكاتبها بالصحراء ، مثلما هو سائد في الحجاز ونجد . .

والتوقيت العربي هو التوقيت الرسمي ، أي أن الشمس تشرق في الساعة الواحدة ، وتتوسط كبد السماء في الساعة السادسة ، وتغرب في الساعة الثانية عشرة !

ومحظور أن تقام الكنائس في مهد الإسلام ، وأن تدق النواقيس والأجراس في أفق الجزيرة ، حيث المآذن ترسل دعاء الإسلام منذ نحو ألف وأربعمائة سنة قمرية .

ولا يؤذن لأي قسيس في أن يطأ أرض الجزيرة ولو لضرورة مؤقتة كعقد زواج ، فمن شاء من المسيحيين أن يتزوج كان عليه أن يرحل إلى الخارج ليعقد إكليله — في البحرين

مثلا ـ ثم يعود بعروسه إلى الجزيرة .

وغير مباح للمطاعم الأمريكية أن تقدم لروادها الخمور أو لحم الخنزير ، كما لا يباح « للكانتين الأمريكانى » أن يعرض للبيع مثل هذه المحرمات .

والويل لرجل الشرطة الذى تقع فى منطقته أدنى مخالفة لهذه القوانين .

* * *

هكذا فُرض على الأمريكان أولَ عهدهم بالجزيرة ، أن يعيشوا هناك رسلَ عمرانٍ لا دعاة استعمار . . .

وبهذا استطاعت الجزيرة ، حتى الآن ـ وأنا أكتب هذا عام ١٩٥١ ـ أن تحمى نفسها من سيطرة الدخلاء ، وإن تركت المدنية الغربية تغزو الصحراء وتعبد طرقها وتضيئها بالكهربا . .

ومن المرحلة الأولى، تطلعت الجزيرة إلى يوم يستطيع أبناؤها أن يسيطروا فيه على الآلة ، فلم تنتظر حتى تستكمل عدتها للتعليم العالى؛ بل فرضت على شركة « أرامكو» أن تنشئ فى « الظهران » مدرسة لتخريج صناع سعوديين ، يدرسون فيها الميكانيكا والكهرباء وصناعات البترول ، ثم يوفدون فى بعثات فنية إلى أمريكا ، ليكون منهم المهندسون والطيارون والخبراء . . .

ترى هل يستطيع هؤلاء المبعوثون أن يقاوموا فتنة الغرب فى أمريكا ، كما استطاعوا أن يقاوموها فى الجزيرة ، حيث القوانين الصارمة والحراس الشداد ؟ !

الجواب فى ضمير الغد ، عندما يلتقى العرب بالأمريكان فى قلب العالم الجديد ، بعد أن التقوا هنا وجهاً لوجه ، فى قلب الصحراء . . .

ثورة فى الصحراء

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »

حملتنا الطائرة من « جدة » فى مشرق الصبح ، وحلقت بنا عالياً ثم مضت تشق أجواز الفضاء وتطوى البيد والقفار ، ونحن نحدق من كواها الصغيرة فى الصحراء الممتدة من تحتنا ، فلا نرى خلال أربع ساعات متتاليات ، غير التيه تتدافع فوقه أمواج الرمال ملتهبة فى وهج الظهيرة ، وتتطاير ذراتها فتعقد من حولنا سحباً كالضباب ، يلف هذا القفر اليباب .

أربع ساعات طوال عبر المهمه القفر ، لم نلمح فيها أثراً لحياة أو معلماً من معالم الطريق . ولا سمعنا سوى أزيز الطائرات وهى تتعثر فى كهوف الهواء !

ونظرتُ إلى رفاق السفر فى الطائرة ، فإذا فيهم نفر من

البدو قد ركبوا معنا متن الهواء وامتطوا جناح هذا الطير على بساط من الريح ، وإن فيهم من أدرك عهد الناقة وشق أكباد الإبل فى مسيره عبر هذه الفيافى التى ظلت ، حتى أمس القريب ، مأوى للجن وملعباً للغيلان ومراحاً للوحوش !

وانثنيت إلى بدوية كانت تجلس أمامى مختفية فى عباءتها السوداء ، أسألها : إن كان لها بركوب الطائرة عهد من قبل ؟

فأجابت فى صوت هامس ، حرصتْ على ألا يبلغ مسامع الرجال الغرباء :

ـ بل هذى أول مرة أخرج فيها من نجد ، وما عرفت قط غير الإبل مركباً .

قلت :

ـ فماذا ترين فى رحلة اليوم ؟

أجابت على الفور :

ـ عجب أى عجب ! إنها والله فعلة ساحر من مردة الجان ، أو معجزة وارثٍ لملك سليمان !

ولما سألتها : أين تحط رحالها ؟ أجابت بأنها لاحقة برجلها الذى يعمل فى « الكامب السعودى » بالظهران .

فابتسمتُ للمفارقة الطريفة بين كلمتى البدوية العريقة :

« محط الرحال » ولفظها الغربي المستحدث : « الكامب » !

وحمل لنا مضيف الطائرة لحماً طريًّا وخبزاً شهيًّا وشراب الكوكاكولا والأناناس ، فأخذت أرقب جارتي وهي لا تجرؤ على لمس الشراب ، ظنًّا منها أنه حرام ! وكنا في هذه اللحظة قد دنونا من الخليج العربي ، فحدقنا فيه مأخوذين ، وحامت الطائرات حول مطار « الظهران » وقد تناثرت فيه الحظائر والمباني كأنها أعشاش الطير ، وجثمت الطائرات على أرضه شبيهة بقطع من الصخور .

ولبثت الطائرة تدرج فوق ساحته بعض ساعة ، ونحن في ذهول مستغرق ، لا نكاد نصدق أننا عبرنا الصحراء ما بين « جدة » على البحر الأحمر ، و « الظهران » قرب الخليج ، في ساعاتٍ ما بين ضحا وأصيل .

وتمثل لي آنذاك شاعرنا الجاهلي الفتى « طرفة »[1] وهو يضرب بناقته في « الدهناء » أياماً وليالي ، ومضيت أردد أبياتاً من قصيدته « المعلقة » في وصف مطيته تلك الأمون الذلول !

هكذا من الناقة إلى الطائرة في وثبة واحدة ؟

---

(١) طرفة : ابن العبد .

هكذا من الهودج إلى « صالون داكوتا وبريستول » ؟
هكذا من ماء الأمطار والعيون ، إلى شراب « الأناناس والكوكاكولا » ؟ !

يا لها من وثبة عاتية ، لم تمر بمراحل التطور التى مررنا بها فى مصر . فما عرفت الدهناء من قبل العربة أو السيارة ، ولا رأت — حتى اليوم — قطاراً يخترق أحشاءها ويمرق بين كثبانها ووهادها !

* * *

وكان مقامنا « بالظهران » فى غرفات فخمة ، مضاءة بالكهربا ، مزودة بالماء الساخن والبارد ، مكيفة الهواء لا نلقى فيها شمساً ولا زمهريراً ، وإنما هو الجو اللطيف المنعش ، قد كيفه القوم حسبما أرادوا ، فإذا بنا نعيش فى جنة ، وليس بيننا وبين الصحراء بقيظها وسمومها ، سوى جدار بسيط تسفعه السافيات وتلطمه الهبوب .

أية ثورة ؟ ! وأى انقلاب ؟ !

لقد كانت هذه البيد لا تعرف من المساكن سوى الخيام المتنقلة تقام على العمد والأوتاد ، ولا ترى من الطعام والشراب سوى الخبز القديد والتمر ولحم الإبل ، واللبن ومياه الآبار والأمطار ،

أما الغرفات المبنية ، والنعم الطيبة ، فكان موعدهم بها فى جنة الخلد ، إذ المؤمنون يومئذ « فى الغرفات آمنون » « لهم غرف من فوقها غرف مبنية » « وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون » .

* * *

إنها الثروة الطارئة ، بثت الحياة فى ذاك الخراب ، وحولت ذلك التيه المخوف إلى ما نرى . . .

هذه آبار الزيت ، تدل عليها شُعل حمراء ساطعة الذوائب تضىء هذا الظلام مؤذنة بانبثاق عهد جديد فى الدهناء التى طال ليلها وضل فيها الخيال ، ومذكرةً بنار القِرى التى كان « حاتم الطائى » يأمر غلامه أن يوقدها على جبال طيئ وهو يرتجز :

أوقد فإن الليل ليلٌ قرُّ
والريح يا غلام ريح صرّ
علّ يرى نارَك من يمر
إن جلبتْ ضيفاً ، فأنت حر

وهذه أضواء الكهربا تنبث بين كثبان الرمال ، مبددةً ظلال الأشباح المرهوبة التى طالما تنقلت بين جبال الظهران

والنهدين وسرحتْ فى متاهة الدهناء والربع الخالى ، ومعلنةً أن العلم قد انتصر على الصحراء كما انتصر من قبل على البحر ، وأذل شوامخ الجبال ، وسخر السحاب !

وهذه أنابيب الزيت تعترض مسيرنا هنا وهناك وهنالك ، وهى تمتد شرقاً وغرباً ، من « الظهران وبقيق وراس تنورة والدمام » ، إلى « البحرين » على شط الخليج العربى ، وإلى « صيدا » على البحر المتوسط ، عبر المياه والرمال ، مسجلةً أن الإنسان قد عرف السر الخطير الذى أجنته أحشاء البيداء دهوراً ، وأزاح القناع عن منجم الذهب الأسود ، المطمور تحت أديم الصحراء ! !

وسبحان الذى سخر لكم « ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون » .

صدق الله العظيم

٢

صُوَرٌ من الجزيرة

- المغتربات
- جارة النبي
- العابدة
- آمنة

المغتربات

« . . . ليتنا نقدر أن الغرب الغالب ،
يدين لهؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ
سياسى واقتصادى ، فى أرضنا الطيبة التى اغتصبت
زماناً ، وشرقنا الذى غلب طويلا واستبيح ! »...

لقيتهن هناك فى صحراء الجزيرة ، قد تخلين طائعات عن الحياة الناعمة فى أوطانهن ، وتبعن أزواجهن إلى ذاك القفر النائى الموحش ، ليهيئن لهم من دفء السكن وأنس الأسرة ، ما يعينهم على العمل الشاق المرير بين الصخور والرمال . . .

لقيتهن هناك فى الدهناء : أمريكيات وأوربيات وآسيويات ، عصريات مثقفات ، قد رضين بالعيش فى تلك الفلاة المهجورة ليمسحن بأناملهن الرقيقة العرق المتصبب من جباه رجالهن العاملين فى وقدة الرمضاء . . .

ورأيتهن هناك : ابتسامة وضيئة فى وجه الصحراء الغضوب وأطيافاً رقيقة أنيقة وسط المهمه القفر ، ونغمة عذبة تسرى أصداؤها فى الأفق ، لتروّح عن الرجال الذين يعملون بين

ضجيج الآلات الضخمة الماردة ، وصفير الرياح الصرصر العاتية ، وعواء الوحوش الضالة الهائمة . . .

* * *

لقد استطاعت الثروة المتدفقة من آبار الذهب الأسود ، أن تبنى للمهاجرين مساكن طيبة ، تحيط بها حدائق مزهرة تصد عنها بعض لفح الهجير وعواصف الرمال ولطمات الرياح السافيات !

ولم يشق على « شركة أرامكو » أن تضيء مساكن رجالها بالكهرباء ، وتكيف فيها الهواء ، وتزودها « بالتليفون والراديو والفريجيدير » لكنها لم تكن لتستطيع ، ولو أنفقت مال قارون وعثرت على كنوز سليمان ، أن تذود عن الرجال الضجر والملال ، أو أن تمس مساكنهم بتلك اللمسة اللطيفة التى تتركها الأنثى حيثما مست يداها ، أو تبث فى المساكن المزودة بآلات التبريد والتسخين والإضاءة والتكييف ، روحا من الأنس واللطف والرقة والحنان ، لا تمنحها سوى الزوجات والأمهات ! !

هن اللواتى يجعلن المساكن بيوتاً ، ويبعثن الحياة فى ذلك الخراب اليباب ، وينبتن فى الأرض القاحلة الماحلة ، زهرات

إنسانية يانعة ، تعطر الجو الصحراوى بأريج الطفولة الباسمة المتفتحة للحياة !

ومن أجل هؤلاء الأطفال ، أنشئت المدارس والملاعب فى منطقة الزيت بالصحراء ، واستطاب الآباء مرارة الكفاح ، واستمرءوا طعم العيش مع وحشة الاغتراب !

* * *

ومضيت ألتمس مصريًّا واحداً بين الرجال العاملين فى شركة الزيت ، فلم أجد !

وقيل لى فيما قيل : إن الجزيرة ألحت فى طلب مهندسين وأطباء وعمال من أبناء مصر ، فلم يستجب لها أحد ، كما استجاب آخرون : من الهند وإيندونيسيا وإيران ، ولبنان وسورية وفلسطين ، وأقطارٍ من أوربا ، وأمريكا . .

لماذا رفض المصريون أن يستجيبوا لدعوة الجزيرة ، مع أنها تلقاهم بترحاب حار لا يظفر به أجنبى ، وتنزلهم بين أبنائها مكاناً عزيزاً تضن به على الغربيين الغرباء ؟

لسبب بسيط ، هو أن المصريات ــ حتى عام رحلتى : ١٩٥١ ــ كن يأبين الهجرة إلى هذه المنطقة من قطر شقيق ،

ويرفضن أن يتبعن أزواجهن إلى نجد ، والأحساء ، مهما تكن المغريات !

هل من العجيب أن تعيش هناك غربيات لا يعرفن حرفاً من العربية ، فى ديار إسلامية محافظة ، تحرم بناء الكنائس ودق النواقيس ودخول القسس والرهبان ، فى الوقت الذى تأبى فيه تلك الحياةَ ، مصرياتٌ ينزلن هناك بين أهل وجيران ، وإخوان فى الجنس واللغة والدين ؟

أو من الغريب أن ترضى بالعيش فى « الظهران » غربية عصرية ، قدتكون ولدت فى نيويورك أو روما أو باريس ، ولا ترضى به مصرية قد تكون مولودة فى إحدى قرى الريف أو نجوع الصعيد؟

كلا ، ليس فى الأمر ما يستغرب ، فكذلك كانت نساؤنا من قديم الزمان ، وأىٌّ هكذا خُلقن ، والأمر لله ! .

إن المصرية تأبى أن تنزح من القاهرة إلى الفيوم ، أو من الإسكندرية إلى دمنهور ، ويندر أن ترى بنت المدينة ترضى بالزواج من رجل يعيش فى الريف ، ولو كان من مُلاك الأراضى أو كبار الأعيان . .

ويتعذر على شبابنا المتعلمين الذين يعملون فى الأقاليم ، أن يجدوا زوجات صالحات ، يحتملن العيش بعيداً عن أضواء

العواصم ! وأعرف من فتياتنا المخطوبات من تشترط لإتمام عقد الزواج أن ينقل الخطيب إلى القاهرة . .

وتستطيع إدارة الإحصاء أن تضع بين أيدينا أرقاماً لا تكاد تُصدَّق ، عن طالبى النقل إلى كبريات المدن !

فهل نعجب إذا لم نجد بيننا من تتبع زوجها إلى الصحراء فى جزيرة العرب ؟ !

إنى لأذكر نساء بعض الموظفين فى مزرعة نموذجية قرب القاهرة ، فى منطقة أشبه بالجنة ، رفضن أن يعشن هناك فى (الفيلات) الأنيقة المضاءة بالكهرباء ، والمتصلة بالعاصمة بخطوط تليفونية مباشرة ! وآثرن جحيم المدينة على جنة الريف . . .

وهناك فى المنطقة نفسها — وهى مكتظة بمصانعَ لأجانب ومتمصرين — تعيش سيدات أوربيات ، يفهمن حق الفهم دورهن فى الحياة ، ويعين رسالتهن نحو رجالهن وأوطانهن !

فليتنا ندرك أن الغرب ، يدين لهؤلاء المهاجرات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ سياسي واقتصادى ، فى أرضنا الطيبة التى اغتصبت زماناً ، وشرقنا الذى غلب طويلا واستبيح ! !

الظهران : ١٠/٢/١٩٥١

جارة النبي . . .

«قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم»

سعينا إلى «الحرم النبوى» فى جلوة الفجر ، يحدونا دعاء السماء الذى ظلت مآذن المسجد الطاهر ترسله منذ نحو ألف وأربعمائة عام ، فتسرى به الملائكة ملء الآفاق ، وترجعه الأطياف السارية على أجنحة من النور الرقيق ، وتتجاوب به القمم والسفوح والوديان فى رنين علوى النغم باهر الأصداء ، فإذا الكون كله تسبيحة مؤمنة وترنيمة هائمة !

وإذ بلغنا باب المسجد ، خلعنا نعالنا وسرنا خُشعاً نحو الروضة الشريفة ، وقد صفا الحس وشف الشعور ورق القلب ، واندمجت شخوصنا المتعبدة فى ركب الأرواح المطيفة بحرم النبي ، الحائمة حوله ، نكاد نميز فيها أطياف الصحابة الأبرار من المهاجرين والأنصار !

فلما قُضيت الصلاة ، انتشر القوم خارج المسجد ساعين إلى أرزاقهم يبتغون من فضل الله ، وبقيتْ قلة من الذين انقطعوا عن الدنيا وآثروا جوار الحبيب المصطفى على كل متاع فيها ،

وآخرون أرهقتهم الهموم والأحزان فلاذوا بنبيهم الكريم ، يسألون الله تعالى بحق هذا النفَس الطاهر فى المكان الطاهر ، أن يرفع عنهم الكرب ويدفع السوء والبلاء . . .

* * *

وكنت قد اخترت مكاناً منفرداً فى الحرم ، أتأمل ، وأحاول أن أستحضر الذى وعيت من مشاهد التاريخ الإسلامى منذ عام الهجرة ، إلى أن لبى الرسول صلى الله عليه وسلم نداء ربه ، وثوى جسده الطاهر فى هذه البقعة المباركة الباقية على الزمان ، مزاراً مقدساً لأجيال المسلمين من شتّى أقطار الأرض .

ومرّ بى فى مجلسى عدد من النسوة يطفن بالروضة الشريفة ، فلم ألق إليهن بالاً ، حتّى إذا فرغن من طوافهن جلسن غيرَ بعيد منى شاكياتٍ داعيات ، فحاولت أن أصرف سمعى عن أصواتهن ودعواتهن كيما أفرغ لتأملاتى ، لكنى ما لبثت أن سمعت صوت نشيج مختنق ، رددتْه جوانب الحرم فكان له صدى قوى ، وجمنا له حيناً حتّى صرفنا عنه قارئ من قراء « المدينة » يتلو قرآن الفجر .

وأدرت رأسى ألتمس الباكية ، فألفيتها إلى جانبى : امرأة

نحيلة الجسم بادية الضعف والشحوب ، تنتفض فى ألم مكبوت وتحاول عبثاً أن تكتم أنفاسها اللاهثة المتلاحقة . . .

وأنكرتها النسوة من حولها فتركن لها المكان ، وبقيت وحدى إلى جانبها أرنو إليها فى رثاء وعطف ، حتى رفعتْ نحوى وجهها الشاحب المبلل بالدموع وهتفت بى :

— ادعى لى !

قلت فى حرارة وتأثر :

— الله معك !

فأشرق وجهها لحظة ، وبدا لى إذ ذاك أنها ليست من أهل الجزيرة ، فسألتها :

— أغريبة أنت عن الديار ؟

أجابت وهى تشهق :

— وى ! غفر الله لى ، أتكون غربة مع جوار النبى ؟ ولكن لى فى بلاد بعيدة فلذة كبدٍ غالية ، وأشعر بنار الشوق تأكل قلبى ، فأفزع إلى ربى لعله يردها برداً وسلاماً . هل تحفظين يا ستى كتاب الله ؟

قلت وأنا أعجب لانتقالها المفاجئ :

— أرجو ، فما الذى تبغين ؟

أجابت فى لهفة :

ـ تقرئين لى آية نار « إبراهيم » فإنى أشعر كلما سمعتها براحة . .

فأدركت ما تعنى ، وتلوت من سورة الأنبياء :

« قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » .

هنالك انبسطت أساريرها ، وبان عليها الارتياح ، لكنها ما لبثت أن انقبضت وهمست تسألنى فى خوف وشك :

ـ وهل يا ترى أبلغ عند الله منزلة سيدنا إبراهيم الخليل ؟

فرجوت لها ألاّ تيأس من روح الله ، ثم هممتُ بالقيام معتذرة بأنى من قومى على موعد ، كى نسعى إلى « أحد » ثم إلى « قباء »[1] قبل أن ترتفع الشمس وتلتهب الصخور والرمال .

فتوسلتْ إلىّ أن أبقى هنيهة ، ريثما تقص قصتها علىّ :

---

(١) قباء : قرية على بعد ميلين جنوبى « المدينة » على يسار الطريق إلى مكة . نزل بها الرسول عليه الصلاة والسلام فى هجرته التاريخية ، وبنى بها أول مسجد فى الإسلام .

* * *

نشأت فى بوادى المغرب الأوسط[١] ، بدوية حسناء ترعى الغنم . ومات أبواها وهى بعد صبية . فكفلها أقارب لها غلاظ الأكباد . لم يكادوا يرونها تتفتح للربيع ناضجة الجسم رطبة العود ، حتى ركبهم الهم واستحوذ عليهم القلق ، فهم يترصدونها نائمة صاحية ، ويتعقبونها بالليل والنهار ، يحصون عليها أنفاسها ويؤولون حركاتها وإشاراتها ، ويتبعون مواقع نظراتها ومواضع خطواتها ، ويصغون إلى ما قد يند عنها من هذر الأحلام فى غفوة النعاس أو غشية الحمى .

وسألتهم أن يرحموها بالخباء فلم يفعلوا ، إذ لم تسعف عليه بيئتهم وهم بدو من فقراء الرعاة ، وهكذا استقبلت ربيع العمر فى ظل رماح مشرعة ، تنتظر بها نظرة شاردة أو ضحكة ناعمة ، كى تمزق بدنها وتبعث به إلى القبر : أكرم مأوى للأنثى فى عرف البداة الجفاة !

ولم تكن تدرى كيف تنأى عن مواطن الشبهات الظالمة ، فقد بدا أن قومها لم يكن يرضيهم منها أى حال :

---

(١) فى كتب السلف ، يطلق المغرب على الشمال الإفريقى مما يلى ليبيا غرباً ، إلى مراكش والأندلس . وربما أطلقوا المغرب الأوسط على تونس .

إن وجمت ، قيل محزونة أرهقها الانتظار ، وإن ابتسمت قيل عاشقة لقيت الحبيب ! .

إن مرضت قيل مجفوة أضناها الهجر ، وإن صحت قيل راضية صفا لها الحب . .

إن نامت قيل حالمة تهفو إلى لقاء الطيف المحبوب ، وإن سهرت قيل مسهدة جفاها الرقاد .

إن تجملت قيل فاجرة تتهيأ للقاء ، وإن أهملت زينتها قيل ضالة رحل عنها من تهواه ! !

وأنهكت هذه الحياة أعصابها حتى أوشكت أن يمسها خبال ، فدعوا لها ضاربى الرمل وقارئى الكف ، كى ينزعوا منها قهراً ذلك السر الأثيم الموهوم الذى تكتمه ، وما كان سرها سوى هذا الصبا الريان الذى تفتح برغمها وأينع . . .

وحين أعياهم أمرها ، زعموا أن لها عاشقاً من الجن ، فاستحضروا الرقاة وضربوا الدفوف كى يبرئوها من مس الجان ، وما كان الذى بها سوى اللمسة الساحرة من فورة الربيع وحيويته الدافقة . . .

ثم كان لهذا العذاب آخر . . .

أو هكذا ظنت وظنوا . . .

زوجوها من أحد شيوخ القبائل المسنين ، فأراحوا أنفسهم من لعنة الشك وأراحوا فتاتهم من وطأة الترصد ، وطاب لهم ولها أن يئدوا ربيعها المسئول عن كل ما لقيت ولقوا ، وأن يلقوا عليه ركاماً من ثلوج الشتاء ، تخمد جذوته المتقدة وتذهب بحيويته وشذاه . . .

لكنها راحة لم تطل . . .

فما كادت تضع غلاماً جميلا فى العام الثانى من زواجها حتى حامت الظنون حولها من جديد ، وكانت عشيرة الزوج هى التى أساءت فيها القول ، وكأنما كرهتْ أن تذهب هذه الصبية الغريبة وولدها الرضيع ، بمال شيخهم الهالك . واستطاع الزوج أن يحميها من ظلم العشيرة ويرد عنها أذاها ما عاش ، فلما مات أمسكت القبيلة عنها ولدها ، وسرحتها إلى قومها وحيدة خائبة ، تندب زوجها فى الأموات وولدها فى الأحياء !

ولم يحسن قومها استقبالها وهى تعود إليهم ذليلة مطرودة ، فأقامت بينهم ما أقامت كسيرة القلب والطرف ، تقضى النهار كله عاملة كادحة ، فإذا جن الليل انتبذت من مسامر الحى

مكاناً قصيًّا وانطوت على أحزانها تجترها فى هدوء وصمت . . .

حتى وفد على الحى ذات ليلة وافد غريب جاء من أقصى الديار يسعى فى طريقه إلى الحجاز ، وقد كلت قدماه من طول السرى فنزل بالقوم يلتمس القِرى ريثما يريح بدنه المجهد ، ثم يعود فيضرب فى الأرض ساعياً إلى بيت الله . وأمضى فى ضيافة القوم ثلاث ليال لم يكف خلالها عن التغنى بشوقه إلى زيارة الرسول وحنينه إلى الروضة الشريفة ، حيث ينسى المرء همومه وأحزانه ، ويجد نفسه فى جوار النبى الحبيب عليه الصلاة والسلام .

وأخذتها عيناه فى كل ليلة ؛ وهى تصغى إليه من ركنها المنزوى ، فرق قلبه لهذا الربيع الحزين وذاك الحسن الذابل . ولما عرف قصتها دعاها إلى أن تلوذ بالحرم الأمين لتلقى هناك أحمالها ، فاستجابت للدعوة دون تردد ، وتشبثت بالرحيل معه ضارعة إلى قومها متوسلة ، مستعينة بالله على من يصدها عن سبيل الله .

قيل لها : لكن الإسلام لا يأذن لك بالحج إلا فى صحبة رجل من محارمك .

فكادت تيأس لولا أن تقدم الرجل الغريب يطلبها زوجة

وقد راقت فى عينيه وطاب له أن يتخذها صاحبة تهون عليه مشقة المسير ووحشة المسرى . . .

ثم انصرف بها يبغيان مكة المكرمة ، ومنها إلى المدينة المنورة . . .

تبعت زوجها مشوقة هائمة ، تريد أن تشكو إلى الله بثها وحزنها وتنفض فى ساحة الحرم همومها وأوجاعها . وقد هون عليها ما لقيت من عناء السفر ووعثاء الطريق ، أنْ كانت كلما نال منها الإعياء وأوشكت أن تتهاوى دون الغاية ، تراءت لها القبة الخضراء من بعيد ، تسعفها بمدد من القوة والاحتمال .

وبلغت غايتها وفيها رمق من حياة ، فأسندت كيانها المتداعى إلى جدار الحرم المبارك ، فرُدّت إليها الروحُ ، ورفعت رأسها إلى السماء مبتهلة داعية . . .

وكانت تظن أن رحلتها ذات رجعة ، وأنها سوف تثوب إلى ديارها بعد أن تقضى من الأراضى المقدسة وطراً ، لكن زوجها أنبأها عقب وصولها إلى « المدينة » أن لا رجعة ولا إياب ، بل المقام فى دار الهجرة حتى أوان الرحيل إلى الدار الآخرة .

ومضى عام فى إثر عام ، وهى تغدو إلى الحرم النبوى

مع مطلع الفجر ، فتقيم به نهارها وقطعة من الليل ، ثم تأوى كارهة إلى قاعة صغيرة فى « حارة الأغوات » حيث ترقد منصرفة عن زوجها ، لا تكاد تبادله حديثاً .

لقد شعرت بغتة أن كل ما بينها وبين هذا الرجل قد انتهى منذ استقر بها المقام فى « المدينة المنورة » . وكانت تؤول هذا الشعور بأنها ما تزوجته إلا لكى يؤذن لها فى المسير إلى البقاع الطاهرة ، ثم تعود إلى بلاد تظل ولدها . أما وقد جاء بها إلى « المدينة » إلى غير عودة ، فليدعها إذن إلى جوار الرسول فما لها فى غربتها ملاذ سواه !

لكنها فى أعماقها كانت ترى هذا الزوج مسئولا عما تعانى من شوق طاغ إلى ولدها :

أو لم يزين لها الزواج على غير هواها ، ويعدها بالسلو والنسيان ؟

أو لم يزعم لها أنه قادر على أن يبدلها بحياتها الحزينة حياةً أخرى لا تذوق فيها خوفاً ولا شجناً ؟ ما بال شوقها إلى ولدها يستعر لظاه حتى ما يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار ؟ !

ما بالها لا يكاد بصرها يقع على صاحبها حتى يثور بها لاعج الحنين إلى ولدها النائى ، فتجد لهذا الحنين مثل لفح

النار ولذع الجمر ؟

وكأنما وجدت أخيراً منْ تحمله تبعةَ ما لقيتْ فى حياتها الشقية منذ مات أبواها ، ومن تأخذه بذنب أولئك الذين اضطهدوها وسرقوا صباها ثم سرقوا ولدها ، دون أن تجرؤ على الشكوى أو الاحتجاج !

وأحست لذلك نوعاً من الرضى ووجدت فيه منفذاً لقهرها المكبوت وأشجانها الضاغطة الباهظة ، فراحت تسأل صاحبها عن صباها المضطهد وربيعها الموءود، وأمومتها المحرومة المعذبة!

وكان الزوج يلقى ثورتها مستخفاً بها ، فلما استمرأت طعم التمرد عليه لم يجد إلا العصا أداة لتأديبها وزجرها ،فكانت تهرب من الدار طول النهار مستجيرة بحمى الحرم الآمن ، فما تكاد تدخل من « باب جبريل » القريب من مسكنها حتى تنسى عدوها ، وتستغرق فى صلواتها ودعائها ، ضارعة إلى الله أن يجمعها بولدها ، أو فليطفئ برحمته وقدرته ، هذه النار التى ترعى أحشاءها وتشوى كبدها . . .

* * *

تنفس الصبح وأنا فى مجلسى أصغى إلى حديثها المر ، حتى إذا أفرغت شكاتها ونفست عن شجونها ، أطرقتْ صامتة

خاشعة ، وبدا لى أنها قد انصرفت عنى تماماً ، فألقيت عليها نظرة رحمة ، ثم قمت أخطو وئيداً فى ساحة الحرم ، رانية إلى أسراب الحمام التى تمرح هناك آمنة لا تراع !

المدينة المنورة : ١٥/٢/١٩٥١

العابدة

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى
زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ،
فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من
الثمرات لعلهم يشكرون »

كانت السيارة تمضى بنا من « جدة » مسرعة ، تريد أن تبلغ بنا « مكة » قبل أن يدركنا الليل ويلفنا الظلام ، وقد أخذتنا شبه غفوة حالمة ونحن نحدق فى الجبال الصخرية التى تحف بجانبى الطريق فى شموخ صامد ، وأشعة الغروب تلقى ظلة رقيقة من ضوئها الشاحب على القمم الجرداء ، ثم تنساب فى رفق على السفوح العارية التى أرهقها قيظ النهار .

وأوشكت السيارة أن تتم أربعين ميلا ونحن لا نرى على الأفق سوى الجبال الصم والتلال المتراكبة والوديان الضيقة المفروشة بالحصا والرمال ، ثم لاحت « مكة » فجأة من بين الفجاج ، فلم نتمالك أن هتفنا من أعماق قلوبنا فى ضراعة وابتهال :

« لبيك اللهم لبيك . . »

ورددت البطاح أصداء هتافنا ، فخيل إلينا أن الوادى قد امتلأ بجحافل المسلمين الأولين ، تتدفق من ناحية الشمال لتدخل مكة ظافرة ملبية ، مع المصطفى عليه الصلاة والسلام ، يوم الفتح ، فى السنة الثامنة لهجرته . .

* * *

وطفنا بالكعبة سبعاً ثم سِرْنا نسعى بين « الصفا » و « المروة » حتى إذا أتممنا المسعى جلستُ على درج « المروة » تجاه الوادى أشرف على البلد العتيق . . .

ولم أكن ، حتى تلك اللحظة ، أفكر فى شىء سوى هذا التاريخ الرائع الممتد الذى صنعه أمىٌّ يتيم ، شهدته بطحاء مكة يرعى الغنم ، أو يخرج مع القوافل أجيراً أميناً لسيدة ثرية من قريش . ثم اصطفاه الله رسولا ، فما رحل عن الدنيا حتى طهر الكعبة من الأصنام ، وشهد بعينيه راية الإسلام تخفق على كل بقعة فى أرض العرب ، وسمع بأذنيه مؤذنه « بلال » ينادى من فوق سطح الكعبة : « الله أكبر » فيستجيب له بالجزيرة مئات الألوف ممن دخلوا فى دين الله أفواجاً . . .

أجل ما كنت حتى تلك اللحظة التى أتممت فيها المسعى ،

أفكر فى شىء سوى هذا التاريخ المجيد الذى صنعه أمى يتيم ، هاجر من بلده أم القرى ذات مساء مع صاحب له صديق ، فما مضى على هجرته ربع قرن حتى كانت دعوته تزلزل عروش الأباطرة والأكاسرة . وتدك حصون الطغاة والجبابرة ، وتفتح ما عرفت الدنيا يومئذ من ممالك وإمبراطوريات . . .

غير أنى لم أكد أجلس على درج « المروة » الصخرى وأرى الساعين يهرولون أمامى داعين مكبرين ، حتى تراءى لى من وراء تاريخنا الإسلامى ، طيفُ « هاجر » وهى تهرول فى هذا الوادى باحثة عن قطرة ماء لتروى غلة طفلها الغالى « إسماعيل ».

* * *

خرجت به من منزل أبيه « إبراهيمْ » — عليه السلام — طريدة منبوذة ، كل ذنبها أنها ولدتْ غلاماً لإبراهيم ، وامرأته السيدة « سارة » عاقر عقيم ! وما كانت « هاجر » هى التى سعت إلى « إبراهيم» لتهبه ولداً ، وإنما قدمتها إليه امرأته : سيدتها « سارة» فى لحظة يأس ، لعل ذلك يروى غلته ويهدئْ من شوقه الطاغى إلى الأبناء ! ولعلها ما سمحت لزوجها فى جاريتها المصرية ، إلا وهى ترجو ألا تثمر التجربة ، فيكف الزوج عن ذكر الولد ، ويختنق فى أعماقه أمل الأبوة المحرومة الراجية .

لكن التجربة لم تفشل ، وشاء الله أن تحمل هاجر فأحست السيدة العاقر لذلك مرارة كادت تفسد عليها حياتها ، وخيل إليها أنها صغرت فى عينى جاريتها ، فشكت ذلك إلى زوجها قائلة :

ـ ظلمى عليك ! أنا دفعت جاريتى إليك فلما حملتْ صغرت فى عينها ! يقضى الرب بينى وبينك .

قال إبراهيم :

ـ هى ذى جاريتك فى يدك ، فافعلى بها ما يحسن فى عينيك .

فلم تكد « سارة» تظفر بهذا التفويض من زوجها ، حتى أسرفت فى إذلال « هاجر» إلى أن هربت من وجهها وهامت على وجهها فى البرية ، ثم عادت بعد حين فوضعت فى حجر إبراهيم ولده « إسماعيل » .

ولم تطق « سارة» على ذلك صبراً ، فما زالت بإبراهيم تحضه على أن يطرد هذه الجارية وابنها وهو يتردد مشفقاً ، ثم استجاب لامرأته آخر الأمر ، ومضى بأمتـها «هاجر» من منزله بأرض كنعان ، وراح يضرب فى الصحراء متجهاً إلى الجنوب وهى تسير من ورائه

صامتة مستسلمة ، متشبثة بصغيرها الرضيع ، لا تكاد تفكر في شيء إلا في نجاتها به . . .

* * *

وأبعد « إبراهيم » في السير حتى بلغ أطلال البيت العتيق وسط المهمه القفر ، فوضع هناك « هاجر وإسماعيل » وترك لهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم انثنى ليعود من حيث جاء.

وتلفتت الأم حولها فأفزعها القفر الموحش لا أثر فيه لحياة ، وجرؤت على أن تخطو وراء السيد لتسأله مسترحمة :

— أين تمضى وتتركنا بهذا الوادى المقفر حيث لا ديار ولا نافخ نار ؟

فلم يجب . . .

وأعادت سؤالها مرة ، واثنتين ، وثلاثاً ، وهو منصرف عنها صامت لا يجيب !

ولم يبق لها من بعد ذلك إلا أن تتساءل :

— آلله أمرك بهذا ؟ !

وإذ ردّ إبراهيم : « نعم » ولم يزد ،

قالت هاجر :

ـ إذن فالله لا يضيعنا . . .

ورجعت إلى موضعها الأول بجانب الأطلال ، على حين مضى هو فى طريقه لا يلتفت ، إلى أن غيبته ثنيّة الوادى ، فاستقبل البيتَ العتيق بوجهه ودعا ربه فى خشوع :

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غيرِ ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدةً من الناس تهوِى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » . واستأنف مسيره فى طريق الشمال ، عائداً إلى أرض كنعان .

* * *

وخيم على الفلاة صمت مرهق لم يلبث أن مزقه لهاث أم عطشى ، وصياح رضيع جائع ، جف النبع الذى يغذوه ويرويه .

لقد نفد الزاد القليل الذى فى الجراب ، وكذلك نفد ما فى السقاء ، وتلاحقت صيحات الصغير وبدأ يتلوى من ظمأ وجوع ، فتركته أمه وانطلقت تبحث عن قطرة ماء . . وحملتها قدماها إلى جبل « الصفا » هناك ، فصعّدت فيه

لتشرف من علٍ على الوادى ، راجية أن ترى إنساناً أو أثراً لحياة ، فلما لم تر إلا الخلاء المقفر ، هبطت إلى الوادى وهرولت حتّى أتت « المروة » فعرجت على السفح لعلها ترى أحداً ، ولا أحد . . .

وظلت هكذا تهرول من هنا إلى هناك ، ساعية بين « الصفا والمروة » : مرتين ، وثلاثاً ، وخمساً ، وسبعاً ، حتّى نال منها الجهد وأشرفت على الهلاك من ظمأ وإعياء ، فتهالكت على الصخور منهوكة القوى دون أن تجرؤ على الدنو من صغيرها المعذب .

وإذ تناهى إليها أنينه ، غطت رأسها بلفاعها كيلا ترى ولا تسمع ، فقد كان سماع حشرجته وهو يحتضر ، ورؤيته وهو يموت ، أقسى مما تحتمله بشريتها أو تطيقه أمومتها !

* * *

ووجمت السماء حيناً وهى تطل على المشهد الفاجع : مشهد رضيع يهلك ظمأ وأم تأبى أن تتزود منه بنظرة وداع ، بل تصد عنه وبها من اللهفة عليه مثل الجنون ! .

وتجهمت الصخور وهى تردد صدى صوت الأم الواهن : « لا أنظر موت الولد » مختلطاً باللهاث والأنين . وبدا كأن

شبح الموت يلقى على الوادى ظلاله الرهيبة وهو يدنو من الطريدين المعذبين ، لينتزع منهما الخفقة الأخيرة من الحياة !

لكن شعاعاً من رحمة الله لاح بغتة أمام « هاجر » فزحفت إلى حيث هداها الله . . وثم . . . . . ألفت نبعاً يفيض ماء !

وأكبت عليه تنهل منه ، حتى إذا ردت إليها الروح أقبلت على طفلها المشرف على الهلاك . . ترويه وتنعشه .

ودبت الحياة فيه من جديد ، وعاش ليعمر هذه البقعة المقفرة ببنيه وأحفاده .

واستجاب الله لدعاء « إبراهيم » فإذا أفئدة من الناس تهوى إلى الوادى غير ذى زرع ، وإذا النبع — بئر زمزم — يجذب القوافل فى آثار الرعاة .

وعاش « إسماعيل » ليرفع هو وأبوه القواعد من البيت العتيق ، فيكون قبلة العابدين فى شتى أقطار الأرض ، ومهوى أفئدتهم فى كل حين ، يحجون إليه من الشرق والغرب ، ومن الشمال والجنوب ، ليطوفوا « بالبيت » ويسعوا مهرولين بين « الصفا والمروة » حيث سعت « هاجر » مهرولة منذ عهد موغل فى القدم ، تبحث لوليدها عن قطرة ماء .

وهذه هى بئر زمزم ، ما تزال فى مكانها قريباً من مقام إبراهيم ، يتزاحم عليها الحجيج ليظفروا من نبعها بجرعة مباركة ، كتلك التى ردت الروح إلى أم هالكة ، ورضيع يحتضر !

* * *

يا له من تاريخ ! . .

إن جهاد أم فى سبيل وليدها ، قد تقبلته السماء ورأت فيه أسمى صورة من صور العبادة ، فجعلت من تلك القصة الإنسانية للأمومة ، سِفراً يتلى فى « الكتاب المقدس » وجعلت من دعاء « إبراهيم » آية منزلة فى « القرآن الكريم » . . .

وكان مسعى « هاجر » وهرولتها بين « الصفا والمروة » سبعة أشواط ، شعيرة من شعائر حج العرب والمسلمين . .

وظل حديث آلامها ، وعذابها وهمومها ، قصة تروى وحديثاً يؤثر .

وما كانت « هاجر » سوى أمة طريدة مضطهدة ، نُبذت مع وليدها بالعراء فى الفلاة الموحشة ، بواد غير ذى زرع .

لكنها أم !

وكانت تلك الأمومة حسبها عبادة وقرباناً !

مكة المكرمة : ١٩٥١/٢/٥

آمنة

إلى التى عجز الرق عن تعطيل
حسها وخنق عواطفها وإهدار آدميتها ،
وإقناعها بأن لاحق لها فى الحب ، أو
البغض : تحية ، ورثاء . . .

بلغنا فى رحلتنا بجزيرة العرب شرقى نجد ، وبدا لى أن أزور بعض النساء العربيات الأصيلات ، المحجبات وراء أسوار منيعة من موروث التقاليد ، فصحبتنى صديقة كريمة إلى بعض من تعرف من سيدات القوم .

وحملتنا السيارة إلى دار صاحبة لها هناك ، فسعى خادم بين أيدينا عبر ممر طويل يفضى إلى فناء داخلى ، تطل عليه قاعة الاستقبال للحريم ، بعيداً عن الطريق العام .

وألفينا فى استقبالنا شابة مليحة سمراء ، قد اتكأت على إحدى الحشايا المنسقة فوق السجاد العجمى ، فنهضت لتحيتنا ثم جلست قريباً من الباب ، وعلى وجهها ظل ابتسامة هزيلة متعبة .

قالت صاحبتى تقدمها إلىّ : « زوجة السيد » .

ثم التفتت إليها قائلة :

ــ ما شاء الله يا آمنة ! أراك بصحة وعافية ، وكنتِ لما لقيتك آخرَ مرة ، عليلة تشكين .

فلاح على وجه «آمنة» ما يشبه التساؤل، وقالت لصاحبتى :

ــ كذا ترينني يا ست؟ حمداً لربى ، أنا بخير ما بقيت فى هذى الدار .

قالت لها السيدة :

ــ ولكن دارك غير بعيدة فيما أعلم .

فانتفضت « آمنة » تقول وهى تتشبث بموضعها :

ــ ما أعرف لى داراً غير هذا المكان ، وليس لى فى سواه مأربٌ ، ولا لى عنه منصرف ، حتى الموت !

صمتنا لحظة ، ثم عادت صاحبتى تسأل :

ــ وزوجك يا آمنة ؟

قالت الشابة وفى نظراتها مزيج من الرعب والاحتقار :

ــ ذاك المخلوق البغيض ؟ ! ما عاد لى به شأن . طلقنى منه سيدى ، له الشكر ولله الحمد .

وكنت أتتبع هذا الحوار وأنا أعجب لما أسمع : أو لم

نقل صاحبتى إن « آمنة » زوجة السيد ؟ فما هذا الحديث العجيب عن دار أخرى وزوج بغيض ؟ وما مكانها من هذا البيت إذن ؟ وفيم تشبثها به إن لم تكن ربتّه؟ وكيف يطلقها السيد من زوجها ؟ ومن يكون الزوج إن لم يكن السيد ؟

ولحظت صاحبتى ما أنا فيه من حيرة فتبسمت ضاحكة تقول :

— لا يدهشك ما سمعت . أصل الحكاية أن « آمنة » عاشت مع السيد سنين عدداً ، زوجة جارية . ثم تزوج أخيراً من إحدى حرائر « المدينة » وزوّج « آمنة » من عبد صانع أجير ، ويبدو أن « آمنة » لم ترض عن هذا الزواج ، فعادت إلى بيت سيدها ، وهذه هى تقول إنها لا تبغى عنه حِولَا .

رددت « آمنة » فى إصرار :

— هو ما سمعتِ : لن أتحول عن هذى الدار إلا إلى القبر . لقد أخرجونى منها مرة كرْهاً ، ولن يخرجونى منها ثانية وفىَّ نفس! أعرف أنى جارية ، أَمة مُستعبدَة ، ليس لى أن أرغمهم على بقائى هنا ، لكنى أعرف أيضاً أنى لن أطيق الخروج ، ولن أرغَم عليه حية ، فليقتلونى إذا شاءوا ، أو . . .

وبترت حديثها بغتة، إذ جاءت « السيدة » فى تلك اللحظة وعندئذ انكمشت « آمنة » فى مكانها تلقى على السيدة وعلينا نظرات طويلة ، دون أن تنبس ببنت شفة .

ونظرت أنا إلى السيدة : عروس فى ريعان الصبا ، رقيقة ناعمة ، أنيقة معطرة ، تميس فى دلال وزهو ، وقد رشقت زهرتين فى شعرها الفاحم المتموج ، وارتدت ثوباً من « الدانتلا » البيضاء ، وازينت كأنها تتهيأ لجلوة عُرس !

وجيء لنا بالقهوة والفاكهة فأصبنا منهما ما اشتهينا ، ودار بيننا حديث هين عن دنيا النساء .

وعلمت أنها من بنات « المدينة » وقد أمضت فيها طفولتها وصباها ، لم تخرج منها قط إلا مرة واحدة منذ ستة أشهر ، يوم جاء زوجها فحملها بالطائرة إلى ساحل الخليج .

ولما سألتها إن كانت أشفقت من ركوب الطائرة ؟ أجابت فى مرح :

ـ هبينى أشفقت ، فماذا بالله كنت صانعة ؟ إن الرحلة من « المدينة » إلى « مكة » على ظهور الإبل ، تستغرق عشرة أيام، فما بالك بالرحلة إلى نجد فالأحساء؟ هل ترينها نزهة طيبة لعروس لم تخرج قط من المدينة ؟

فضحكنا جميعاً إلا « آمنة » ! قالت بصوت خافت وهى تعبث بخيوط لفاعها :

ـ أما أنا فما استطعت . سألنى سيدى أن أصحبه إلى « المدينة » يوم طار إليها ليأتى بالسيدة العروس ، فرجوته أن يعفينى من هذه الرحلة ، إذ أنى أخاف ركوب الريح ...

وصمتتْ بعد ذاك فلم تقل شيئاً ، حتى قامت السيدة لبعض شأنها فاستطردت « آمنة » قائلة تنظر إلىّ :

ـ تالله ياستى ما كان بى من خوف ، وإنما ضعفت فكرهت أن أشهد بعينى جلوة العروس .

فسألتْها صاحبتى :

ـ وأى شيء فى ذلك يا آمنة ؟ قسمة ونصيب ، وقَدَرٌ يجرى عليك وعلى مثيلاتك ، أفما كنت تتوقعين أن تدخل هذه الدارَ سواك ؟

أجابت فى بطء :

ـ أجل توقعت ذلك . . . وتوقعت أن يلفظنى هذا المكان على غير رغبتى وهواى ! ويالى من حمقاء ! أقول رغبتى وهواى ، وإنى لأعلم أن ليس لمثلى حق الرغبة والهوى !

لكنه الضعف ، فمعذرة . . .

قلت أواسيها :

— لا حاجة بك يا آمنة إلى الاعتذار ، فما أذنبتِ . إنى أفهمك يا أخت ، كما أفهم نفسى .

فوجمت لحظة كأنها لا تصدق أذنيها ، على حين مضيت أقول :

— ولم لا يا آمنة ؟ أليس لك عواطف أنثى وطبيعة بشر ؟ أو لم تلدك أمك مخلوقة سوية من الفصيلة الآدمية التى ينتمى إليها كل الناس ؟

فتهلل وجهها ، وامتلأت عيناها بالدموع ، لكن وجومها عاودها بعد قليل فتنهدت قائلة :

— لست واحسرتاه أذكر والدى ، غير أنى لا أفتأ أتمثلنى وليدة فى حضن أم ! وكلما رأيت طفلا يسلم نفسه إلى صدر أمه ويغفو هانئاً بين ذراعيها ، هاجت شجونى وقلت لنفسى : « كذلك كنت من قبل ! » ثم أعود إلى واقعى فأرانى ولا أم لى ! نسج الزمان بينى وبينها حجباً كثيفة لا ينفذ منها شعاع ولا يبدو من ورائها شىء .

وأمسكتْ عن الكلام ريثما دخلت « السيدة » وأخذت

مكانها بيننا ، فاستأنفت « آمنة » حديثها قائلة لى :

ــ سمعتك يا ست ترغبين فى زيارة نواحى البلدة . لو شئت لأذنتِ لى فى أن أصحبك الآن ، ولن تستغرق رحلتنا سوى ساعة أو بعض ساعة .

فأدركت على الفور أنها تريد أن تنطلق معى خارج الدار ... ولم أتردد ، بل استأذنت مضيفتى وصاحبتى ، وخرجت مع « آمنة » .

وتركت لها أن توجه سائق السيارة إلى حيث تبغى ، فانطلقت بنا إلى الخلاء ، على حافة الصحراء .

وقادتنى إلى مكان منعزل بين كثبان الرمال وراء جبل الظهران ، ثم راحت تكمل رواية المأساة :

* * *

لم تعرف عن نشأتها الأولى سوى ذكرى غامضة لطفلة صغيرة لاهية ، ضلت طريقها إلى أمها فى زحام كبير لا تدرى اليوم إن كان زحمة سوق أو احتفالا بعيد . وألفت نفسها بعد أيام تعبر البحر على ظهر سفينة كبيرة ، ثم تُسلَّم إلى رجل غريب يمضى بها على راحلته فى سفرة عبر الصحراء ، استغرقت

أسابيع قبل أن تلتقى بها فى « مدينة الرسول » لتعيش هناك أعواماً ، وتتلقى الدروس الأولى فى مدرسة الرق وسوق العبيد !

ولم تكن الدروس فى مبدأ الأمر شاقة ولا مرهقة ، فقد اكتفى السادة من الوليدة بأن تلاعب صبية الدار ، وأن تلازمهم كظلهم ، أقاموا فى البيت أو انطلقوا إلى الملاعب . وكان طعم الحياة هكذا سائغاً مقبولا ، فإن السادة الصغار لم يكونوا يجدون حرجاً فى أن تشاركهم فى اللعب ، أو يرون فى جاريتهم غير رفيقة صبا وزميلة ملعب . حتى شبت وشبوا ، فإذا بها تنزع فجأة من بينهم ، وتدفع إلى قوم غرباء ، يرحلون بها من جديد عبر البيد القفار . . .

وعبثاً حاولتْ أن تبقى مع من حسبتهم أهلها ، وعبثاً حاول أترابها من صبية البيت ، أن يحملوا أهلهم على الإبقاء عليها ، فقد بدا كأن الأمر مقرر لا يحتمل مناقشة أو رجاء ! ولما حانت ساعة الرحيل تمهلت الفتاة عند باب الدار تريد أن تملأ عينيها من منزل صباها ورفاق حداثتها ، فحالت الدموع بينها وبين ما تريد .

واندفع صبى من الأسرة يهتف بها ألا تحزن ، فإنه

ماض معها إلى حيث يُسار بها !

فأشرقت أساريرها بعد تجهم ، على حين مضى الصبي يستأذن فى السفر خالتَه زوج أبيه ، إذ كانت أمه قد ماتت قبل عام ، وجاءت أختها فشغلت مكانها من الدار .

ولم تكد الخالة تسمع حديثه عن رغبته فى مرافقة « الوليدة » حتى قهقهت ضاحكة ، ثم تطوعت فألقت عليهما درساً فى الفارق الرهيب بين السادة والعبيد .

وكانت تلك هى المرة الأولى التى تسمع فيها الفتاة أن من البشر من يباع ويشرى ، دون أن يكون له من أمره شىء ، أى شىء !

وأدركت أنها من هذا الصنف المنبوذ الذى لا أهل له ولا وطن ، ولا أمس ، ولا يوم ، ولا غد . . .

وعراها وجوم ذاهل ، فاستسلمت لما يُراد بها فى ذلة ، واستقبلت طريقها المجهول دون أن تلقى كلمة وداع للسيد الصغير الذى أعجزه أن يحميها من مصيرها المحتوم ، فانثنى يبكى لها ، وعليها . . .

وأعفاها ذهولها الطارئ من الشعور بالمحنة ، أو لعل وضعها الأليم قد عطل مثل هذا الشعور .

* * *

حتى إذا عاودها وعيها بعد أيام ، تلفتت وراءها تُطل على عالمها الماضى ، فلم تجد سوى الصحراء الممتدة إلى غير مدى ، غامضة كئيبة موحشة . . .

وعادت تنظر أمامها متسائلة عن المصير المنتظر ، فلم تجد سوى المتاهة الضالة العمياء !

وتناهى إليها فى تلك اللحظة ، صوتُ حادى القافلة يَعد الإبل الرِّى والراحةَ بعد الرحلة المجهدة ، فطاب لها أن تبكى ، لكن نظرة صارمة من وجه « المشترى الغريب » أمسكت الدموع فى مقلتيها حبيسة مترنحة . . .

وتمنت آنذاك لو أنها ناقة فى القطيع ! إذن لوجدت إلى جانبها من يحدوها فى رفق ويغنى لها فى حنان ، ويَعدها الراحةَ والظل والرى . . .

* * *

حين وصلت « آمنة » إلى هذا الفصل من قصتها ، خنقتها العبرات فتركتُها تبكى حتى أراحها البكاء ، فاستأنفت الكلام قائلة :

« ظلت القافلة تضرب فى البيداء أياماً وليالى حتى أشرفت على نجد ، وآن لنا أن نحط الرحال .

وقادنى الغريب إلى دار رحبة ، حيث أسلمنى إلى سيد كهل هناك ، تفرّس فى وجهى مليًّا ، ثم أسلمنى بدوره إلى القائمة بشئون الدار .

وبدأتُ عهداً جديداً شتان ما بينه وبين العهد الذى كان. بدت لى الدار موحشة خراباً برغم ضجيج النسوة اللواتى كن يملأنها . لقد افتقدتُ فيها الصبية والأطفال ، وألفيتنى أعيش وسط جمع متناكر من النساء !

كن أربعاً ، متفاوتات السن ، مختلفات السحنة واللون ، لكنهن متماثلات فى الزى والمظهر والمستوى ، وقد حسبتهن زوجات السيد ، لكنى ما لبثت أن عرفت أنهن جميعاً من الإماء ، جاء بهن السيد واحدة بعد أخرى ، يرجو أن تلد له إحداهن ولداً ، فلم يحقق الله الرجاء .

وكانت هناك خامسة ، سبقتهن جميعاً إلى بيت السيد ، ثم تقدم بها العمر فتركت مكانها فى الحريم ، وتفرغت لخدمة الدار ، يعاونها جمع من العبيد .

وإلى هذه الأمة الكهلة ، ترك السيد أمرى ، فقامت بمهمة إعدادى للموضع الذى ينتظرنى بين الجوارى الأربع .

ولم يستغرق هذا الإعداد سوى عام واحد ، ألفيتنى بعده

أنفرد بغرفة خاصة إلى جانب الغرف الأربع ، وأحظى دون الزميلات ، بأوفر نصيب من عناية السيد واهتمامه !

وسكنتُ إلى حياتى الجديدة وقد أرضانى أن أكون موضع الغيرة والحسد ، فما عهدتْ الجوارى من سيدهن مثل تلك المعاملة الرقيقة التى أوثرتُ بها :

كنت إذا شعرت بوعكة ، حملنى السيد بين ذراعيه إلى فراشى ، وسهر على رعايتى ، يسقينى الدواء ، ويملأ غرفتى بأطيب المأكولات .

وكان إذا سافر ، عاد إلىّ بادىَ اللهفة ، وملء يديه الهدايا من ثياب وحلى وطيب .

وكاد هذا التدليل ينسينى أنى أمَة ، لولا بقية من المرارة كنت أشعر بها فى فمى كلما ذكرت اللحظة الرهيبة التى ودعت فيها صباى الحلى ، ولقّنت الدرس الأول عن محنة الرق . . .

أجل ، كدت أنسى . . . لكن الزمان لم يسمح لمثلى بالنسيان :

سافر السيد يوماً إلى الشام حيث غاب أشهراً ثلاثة أرهقنى فيها انتظاره ، فتشاغلت بتصور لهفته علىّ ، حين يئوب بهداياه .

وقد آب من سفره . . .

وكانت هديته الواحدة إلينا جميعاً ، أمَةً جديدة أنزلها المنزلَ الأول الذى كان لى ، وحَوَّل إليها ما كان يؤثرنى به من رعاية وتدليل !

وانزويت فى الدار محاولة أن أستسلم ، فما كان من حقى أن أثور ، أو أحتج ، أو أغضب ، أو أتألم !

حاولت أن أحتمل إذلال « المحظية » الجديدة وشماتة الأربع القديمات ، وأن أصغى إلى نصح صديقتى الأمة العجوز التى حرصتْ على أن تميت حِسّى رحمة بى ! فما يجدى الألم فيما لا يد لنا فيه ولا طاقة لنا على تغييره .

وسهرتُ الليالى فى كفاح أليم غايته أن أخنق بشريتى وأعطل إحساسى ، حتى أفلحت فى أن أهيل فوق قلبى وروحى أكواماً من رماد المداراة والتصبر والاحتمال .

لكن هذه الأكوام انهارت بغتة ذات ليلة ، حينما رأيت السيد فى غرفتى التى هجرها نصف عام !

وكان بيننا موقف أليم عنيف : أصر على أن أبقى له حيث يشاء ، كما فعلت زميلات لى من قبل ، وأصررت على أن يبيعنى ليعفينى من العيش فى هذا الجحيم .

قال مهدداً :

– لو ظللتِ على عنادك ، بعتك لبعض الرعاة الأجلاف .

فهتفت به متوسلة :

– افعل ! افعل بالله ! إن العيشة الجافية الغليظة الخشنة فى مضارب البدو ، أجمل فى عينى من البقاء فى هذه الدار الرحبة ، رافلة فى حلل من حرير !

فاشترط لكى يفعل ، أن أكون له كما كنت من قبل : الأمة المطيعة الوديعة ، ريثما يختار لى من يشترينى ويدفع الثمن .

* * *

وجاء المشترى ، وكان شابًّا مهذباً من رجال الحكومة ، مر بنا فى رحلة له بنجد ، وكنت أظن أن موقف الوداع هذه المرة ، أهون من المرة التى سبقتها . ولذلك عجبت حين شعرت بشجن عميق يملأ نفسى ، لما قبلتُ يد سيدى للمرة الأخيرة ، وحييت صديقتى الأمة العجوز ، ورفيقاتى اللواتى أحطن بى مودعات داعيات .

ولم أطق أن أطيل النظر إلى غرفتى التى تلقتنى صبية عذراء ، وأخرجتنى إلى الدنيا بعد ست سنوات ، امرأة قد

شربت الكأس حتى الثمالة ، وبلت عيشة النساء ، واكتوت بنار الهجر والغيرة والقهر .

وذكرتني رحلتي من بادية نجد برحلتي الأولى إليها ، فلبثت أيام السفر صامتة حزينة . وكان سيدى الجديد رفيقاً بى طوال الطريق ، فلم يضق بوجومى وانقباضى ، بل تركنى أجتر أحزانى فى هدوء !

وحططنا الرحال هنا ، فأدهشنى ألا أجد فى الدار امرأة سواى .

واتخذنى سيدى صاحبة له ، وزوجة ، وربة بيت ، فتفتح له قلبى المغاق ، وذقت لأول مرة طعم الحب ، واستمرأت حلاوة هذا الرق الجديد ، فانية فى السيد الحبيب مستغرقة ، وامتد بى هذا الحلم الهنيء حتى أتم سبع سنين .

ثم كانت اليقظة الفاجعة !

أنكر الناس على رجلى أن يقنع بأمة عقيم ، وزينوا له أن يأتى بأخرى قد تنبت « البذرة » التى عجز كيانى المجدب عن إنباتها .

وكان لكلام الناس فى أذن سيدى وقع السحر ، فطار إلى « المدينة » وعاد بعروس من الحرائر ، حملت له « البذرة »

المشتهاة ، ولم يهن عليه أن يبيعنى ، فأخرجنى إلى دار قريبة ، زوجةً لصانع أجير من طبقتى .

وحاولت هذه المرة أيضاً أن أستسلم لقدَرى ، لولا هذا القلب الذى يخفق بين ضلوعى ، متشبثاً بالدار التى أظلتنى سبع سنوات ، ومتعلقاً بالرجل الذى كان لى السيد والأبَ والأخ والزوج والرفيق الحبيب !

قال لى سيدى : صبراً يا آمنة ، فقد تألفين العيش مع زوجك على مر الأيام .

لكن الأيام مرّت ، والشهور ، وأنا أزداد نفوراً من هذا المخلوق واشمئزازاً ، وبغضاً له ومقتاً .

وهربت منه ثلاث مرات ، فكان سيدى يردنى إليه فى كل مرة ، ويوصينى بمزيد من الصبر والاحتمال .

حتى غُلبَ الصبر ونفد الاحتمال ، فأبيت على الزوج الكريه أن يمسنى ، ولما حاول أن يخضعنى بالقوة ، عدوت هاربة فى جوف الليل ، ولذت بدارى الأولى هنا ، ضارعة إلى « السيدة » أن تدعنى أعيش لها أمة خادمة ، أو فلتأمر السيد بانتزاع روحى من جسدى إذا شاءت ألا أبقى تحت سقف هذا البيت .

ورحمونى ، فكان الطلاق والخلاص ، وتُركت حيث أريد ، مكتفية بأن أسمع صوت سيدى ، وأرى وجهه ولو من بعيد . . .

وذاك حسبى من دنياى »

* * *

قلت لآمنة ونحن عائدتان إلى الدار :

ـ ترين يا آمنة ، لو وهبك السيد حريتك . .

فلم تدعنى أكمل كلمتى ، بل قاطعتنى فى مرارة :

ـ وماذا أفعل بهذه الحرية ؟ أى مكان لى على هذه الأرض إذا لفظتنى الدار التى كانت لى يوماً جنة الحب؟ ما انتفاعى بحياتى كلها ، وقلبى مصفد بأغلال رقه وهواه ؟

ثم صمتت ، حتى إذا اقتربنا من البيت أكبتْ على يدى تقبلها وهى تهمس :

ـ شكراً يا ستى ، ألف شكر ! كنت كريمة إذ رأيت فينا ، معشر الإماء ، مخلوقات بشرية ذات قلوب ، وأصغيت إلى واحدة عجز الرق عن تعطيل حواسها وخنق قلبها وإقناعها بأن لا حق لها فى الغيرة أو التألم أو الشكوى ، أو الحب ، أو البغض .

وغابت « آمنة » عن عيني ، فلم أرها حتى هممت بمغادرة الدار بعد انتهاء الزيارة ، وإذا ذاك لمحتها تخطو نحونا شاحبة متداعية ، ثم تقف بباب العربة لتقول لنا مودعة :

— في أمان الله . . . .

الدمام : جزيرة العرب ١٠ / ٢ / ١٩٥١

٣

أصداء من الجزيرة

منْ بَعيد

أكتب هذا وما تزال ملء مسمعي أصداء آتية من بعيد...
أصداء قوية لسمر أدبي حافل ، ملأ إحدى أمسياتنا في شرق الجزيرة حين اجتمعنا بإخواننا علماء « القطيف » وأدبائها ، على ساحل الخليج .

* * *

كانت زيارتنا لهذه المنطقة النائية على غير موعد ، فما دار بخلدنا ونحن نتهيأ للسفر إلى جزيرة العرب ، أننا قادرون على أن نبلغ أقصى شرقها ، في رحلة لا تتجاوز خمسة عشر يوماً ، لولا رعاية كريمة من جلالة عاهل الجزيرة ، هيأت لنا أن نذهب حيث شئنا على متن الطائرة ، فطُويت لنا الأبعاد واستطعنا أن ننتقل من الحجاز إلى نجد فالأحساء فساحل الخليج العربي .

هنالك ذكرنا « القطيف » فيما ذكرنا ، ورأينا حقًّا علينا أن نلم بمكان لعب في تاريخنا الديني والسياسي والأدبي دوراً ذا بال .

وما كان يُغفر لنا أن نكون بالأحساء ثم لا نزور هذه المنطقة التي كانت منزل « بكر بن وائل ، وعبد القيس »

وفى ربوعها نشأ شعراء فحول ، لهم فى الأدب العربى مكان أى مكان ! ومن وراء مرتفع « الصمّان » [١] الصخرى الذى يتوسط بينها وبين « الدهناء » فيعزلها عن « نجد » ، تسللتْ جموع « القرامطة » [٢] فى القرن الثالث الهجرى ، حتى إذا جاوزوا الأحساء اندفعوا كإعصار مارد ، يلقون الرعب فى القلوب ويعيثون فى الجزيرة فساداً ، ويأخذون طوائف الحجيج عاماً بعد عام ، فيقتلون مسرفين فى القتل ، ثم يعودون بالأسرى إلى « هجر »[٣] . وما جاء القرن الرابع حتى كان زعيمهم « أبو طاهر الجنابى القرمطى » [٤] يتسلق أسوار « البصرة » فى نحو ألفين من رجاله ، ويغلب على « الكوفة » و« الأنبار » ويفتك بعسكرٍ للدولة العباسية ، عدته بضع عشرات من الألوف ! .

---

(١) الصمان : مرتفع صخرى متاخم للدهناء . قيعانه عذبة المياه ، ورياضه معشبة . انظر معجم ياقوت ٥/٣٨٣ .

(٢) القرامطة : جماعة ثورية ، عاثت فى الشرق الإسلامى فساداً فى القرن الثالث الهجرى ودوخت الدولة العباسية .

(٣) هجر : قاعدة البحرين ، وكانت مقر القرامطة الذين أرادوا أن يجعلوا منها المركز الدينى للإسلام ، بدلا من مكة . راجع (تاريخ أبى الفدا ٢/٩٠ ، وبلدان ياقوت ٨/٤٤٦) .

(٤) أبو طاهر القرمطى : سليمان بن الحسن أبى سعيد . زعيم القرامطة مات بالجدرى فى هجر سنة ٣٣٢ هـ . راجع (تاريخ أبى الفدا : ٢/٩٠) .

أجل ، كان حقًّا علينا ونحن فى الأحساء أن نلم بالقطيف ومنطقة البحرين ، فمضينا ونحن نردد قول الشاعر :

وتركْنَ « عنترَ » لا يقاتل بعدها
أهلَ « القطيف » قتالَ خيلٍ تنفع

وقول الآخر :

نصحتُ لعبد القيس يوم « قطيفاً »
فما خير نصح قيل لم يتقبلِ ؟

فقد كان فى أهل القطيف فوارس
حماة إذا ما الحرب ألقت بكلكل

* * *

اتجهت بنا السيارات إليها فى الطريق الصحراوى المعبد من ميناء « الدمام » ونحن نرنو فى تأمل صامت إلى الصحراء الممتدة ، وقد أذابت شمس الأصيل فيها أشعتها الذهبية الغاربة .

ولاحت لنا « القطيف » من بعيد : واحةٌ ناضرة على حدود الصحراء ، وجنة خضراء على حافة القفر المجدب ، ومراحاً عامراً شمالَ « الربع الخالى » . ثم بدأت السيارات تتعثر فى دروب ضيقة ، تحف بها البساتين عن يمين وشمال ، وتجرى فيها الغدران فياضة بمياه العيون والآبار .

وتهادى إلينا نسيم المساء رخيًّا عليلا معطراً بأريج الأزهار وشذا الثمار ورائحة العشب ، وانبثقت أضواء الشفق الوردى فتوّجت هامات النخل الباسقات ، ثم نفذت من بين الفروع والأغصان ، واستلقت فى وهن وتراخ على صفحة الغدير المتألق وفوق العشب الندى ، غير مكترثة لصراخ « الكلاكسون » ولا عابئة بنباح الكلاب فى آثار القطعان .

وكذلك استغرقنا فى خمول هنىء ، لم نكد نفيق منه إلا على هتاف أهل « القطيف » وقد خرجوا بمشاعلهم يستقبلون ضيوفهم أبناء النيل .

وأبى الكرام أن يكتفوا منا بحفلة الاستقبال فى دار الأمير ، أو جولة عابرة فى المنطقة ، بل دعونا إلى مجلس حافل أعد لنا فى بستان الوجيه « السيد عبد الله إخوان » أحد الأدباء الأعيان .

وكانت أمسية لا تنسى

لم يبق فى « القطيف » من لم يسع إلى مجلسنا هناك ليلقى إلينا كلمة تحية وعتاب .

أما التحية فلمصر العزيزة الغالية ، قبلة أنظار الشرق العربى ، ومهوى عقول أبنائه ، وكعبة الرواد والقاصدين من

طلبة العلم وراغبي الثقافة .

وأما العتاب فللأدباء مصر الذين نسوا أن فى شرقى جزيرة العرب واحة اسمها « القطيف » شاركت فى صنع تاريخنا الإسلامى وتركت فى تراثنا الأدبى أثرها الباقى .

إن « دارين » [١] ما تزال هناك ، ترجع صدى أغانى « النابغة الجعدى » [٢] و « الفرزدق » [٣] وغيرهما من الشعراء الذين لم يجدوا مايشبهون به عرف الحبيبة أذكى من مسك دارين . وإن بساتين « هجر » باقية حتى الساعة ، مثمرة غناء ، تبتسم للضاربين فى الصحراء ، وتمدهم بالظل والتمر والماء ، كما كانت فى قديم الزمان يوم ضرب العرب بها المثل فقالوا : « كحامل التمر إلى هجر » .

---

(١) دارين : فرضة بالبحرين ، يجلب إليها المسك من الهند ، وقد تغنى الشعراء بمسكها . راجع (معجم ياقوت ٥٣٧/٢ ومعجم ما استعجم للبكرى ٣١٥/١) .

(٢) النابغة الجعدى : أبو ليلى ابن عبدالله — شاعر جاهلى مقدم ، أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم وأنشده شعراً فدعا له ألا يفضض الله فاه . راجع (طبقات الشعراء لابن سلام ٤٣ والأغانى ١/٥ ط دار الكتب) .

(٣) الفرزدق : همام بن غالب بن صعصعة . أحد أمراء الشعر الثلاثة فى العصر الأموى ، وأبرعهم فى الفخر . انظر (الأغانى ٣٢٤/٩ ط دار الكتب) ومعجم الشعراء للمرزبانى .

وهناك ، ما تزال آثار من « الكُعيْبة » تروى قصة ذلك الحلم الأحمق الذى راود « أبا طاهر القرمطى » وزين له أن يجعل من « هجر » وارثة لمكة ، فوافى البلدَ الحرام إبان موسم الحج عام ٣١٧ هـ ، ودخله فى تسعمائة من شيعته ، فقتل أمير الكعبة ، وفتك بألوف من الحجيج فى المسجد الحرام وفى فجاج مكة ، وقلع باب الكعبة ، وانتزع « الحجر الأسود » ثم اعتلى سطح البيت وهو يصيح :

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلقَ وأفنيهم أنا !

قيل إنه قتل بفجاج مكة وظاهرها زهاء ثلاثين ألف نفس ، غير مَن سبى من نساء وغلمان ، وأقام بمكة ستة أيام ثم عاد فى موكبه الحافل يحمل « الحجر الأسود » إلى « هجر » فبقى بها هذا الأثر المقدس نيفاً وعشرين سنة ، حتى أعاده القرامطة إلى مكة عام ٣٣٩ هـ . وهم يقولون :

ــ رددناه بأمر من أخذناه بأمره !

أما تستحق بلاد البحرين بعدَ هذا لفتة من أدباء مصر ، ودارسى التاريخ الإسلامى ؟

إنهم ايحجون إلى أم القرى ألوفاً ذات عدد كل عام ، وإن منهم من ينتدب للعمل أو التدريس فى الحجاز واليمن

والكويت ، فما ألمّ بالقطيف من كل أولئك زائر !

وهى على الهجر الأليم ، لا تكف عن ذكر مصر ، وتتبع أخبارها العلمية والأدبية . بل إنها فى معزلها النائى المهجور على ساحل الخليج ، تستورد البضاعة الأدبية من ضفاف النيل ، وتعرف عن سير الفن والحياة بها ، وأعلام الأدب والفكر فيها ، ما يجهله المصريون أنفسهم ، غير قلة من المتعلمين .

كم تألمت وأنا أصغى إلى حديث أدباء القطيف عن معاركنا النقدية ومذاهبنا الفنية ؟ !

كم خجلت وأنا أرى فى أيديهم كتبنا ومجلاتنا ، نحن الذين لا نشعر بهم أو نلقى إليهم بالا ؟

كم تأثرت وأنا أسمع الشاعر « عبد الرسول الجشى » يعرفنا ببلده الذى هو قطعة من وطننا الشرق العربى :

هذى بلادى وهى ماض عامر
مجداً ، وآتٍ — بالمشيئة — أعمرُ
ألقى عصاه على فسيح ضفافها
وعلى الجزائر ، عالَمٌ متحضر
وأذلت التيار تحت شراعها
فلها عليه تحكم وتأمرُ

وترى السفائن بالتوابل والحلى
والعطر من بلد لآخر تحمل
شهدت موانى الهند خفق قلوعها
فكأنها فوق المياه الأنسرُ
ولها على وادى الفرات ودجلة
فضلُ المعلم وهو فضل يؤثر

* * *

وأتت « ربيعةُ » وهى غُرّة يَعرُب
وأذبها يوم الكفاح وأصبر
وأعزها جاراً وأكثرها قرى
إذ يمحل البلد الخصيب ويقفر
فرأت بها الوطنَ الخصيبةَ أرضُه
للماء فيه تدفق وتفجر
والنخل وارفة الظلال كأنها
جيش كثيف بالخليج معسكر
تهدى لها الصحراءُ فى السحَرِ الصَّبا
فتمرُّ كالحلم اللذيذ وتخطر

والبحر يهديها اللآلئ زينةً
وتجارةً ، فيها الغنى يتوفر
وكصفحة المرآة جو مشرق
وكلوحة الفنان ريفٌ مزهر

* * *

ورأت بها لغة العروبة بيئة
شعرية توحى ، وجوًّا يسحَر
فإذا الضفاف نشائد مسحورة
وكأنما فى كل حلق مِزْهرُ
الملهَمون المبدِعون تسابقوا
فيها بمدرجة الخلود وشمروا
شعراء «عبدالقيس» تهزج بالهوى
فيجيبها من « بكر » رهطٌ أشعر
فيها جنى «ابن العبد» [1] حلو شبابه
راح ، وريحان ، ووجه أقمر

---

(١) ابن العبد : طرفة ، الشاعر الجاهلى المشهور .

وخيال « خولة »[١] يستثير غرامه
فيظل فى أطلالها يتحسر
و « بجعفر الخطىّ » فن خالد
وروائع غنّى بهن السُّمَّرُ

* * *

على مثل هذا كان يدور السمر فى أمسيتنا تلك ببستان الأخ « السيد عبد الله إخوان » فى « القطيف » . والآن وقد رجعت إلى مصر ، أرى حقًّا علىّ أن أنقل إلى قومى بعض أصداء ذلك المجلس الأدبى ، ليعلموا أن على ساحل الخليج فى أقصى الشرق من جزيرة العرب ، إخوة من كرام العلماء والأدباء ، يتطلعون إلى مصر ويهتفون باسمها ، ويعتزون — كما قال الأخ السيد حسن بن على أبو السعود — بما بيننا « من روابط القربى واللغة والعقيدة ، ويكنون لأبناء الكنانة كل تقدير ومودة ، ويرون فى الثقافة المصرية المورد العذب النمير » .

ويالها من روابط عزيزة تجاهلناها نحن فلم نؤد ما لها

---

(١) خولة : حبيبة طرفة ، ذكرها فى البيت الأول من معلقته :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقوفا بها صحبى علىّ مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجلد

علينا من حق ، وتشبث بها إخواننا هناك ، فما كادوا يروننا حتى هتف مضيفنا الكريم : « ليت هذه الزيارة التى طالما رنونا إليها ، تكون فاتحة تعارف وهمزة وصل بيننا وبين مصر الشقيقة . وما أمسّ حاجتنا إلى هذه الأخوة وذاك التعارف ، حتى نصبح — نحن بنى الضاد — كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً ، وكالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الأعضاء » .

وقال الأديب « محمد سعيد الشيخ الخنيزى » :

« إن بيننا وبين الصفوة الأمناء من أدباء مصر ومفكريها ، تياراً متصلا فى الفكر والروح ، مهما تنأ بنا الديار ، وتفصلنا بيداء وبحار :

إن « القطيف » و « مصر » شعب واحد
فى المبدأ السامى وفى الأفكار
فمتى نرى هذى الصفوف توحدت
ترمى العدو بمارج من نار ؟

وقال الشاعر « محمد سعيد الجشى » :

هذى « القطيف » شيوخها وشبابها
هبت تحييكم بكل لسان

فلتخبروا « مصر » العزيزة أننا
إخوان فى الأوطان والأديان

هذى ربوع العرْب مهد واحد
لا فرق بين بعيدها والدانى

وشعوبها أمم موحدة الهوى
فى كل ما يرمى لرفع كيان .

* * *

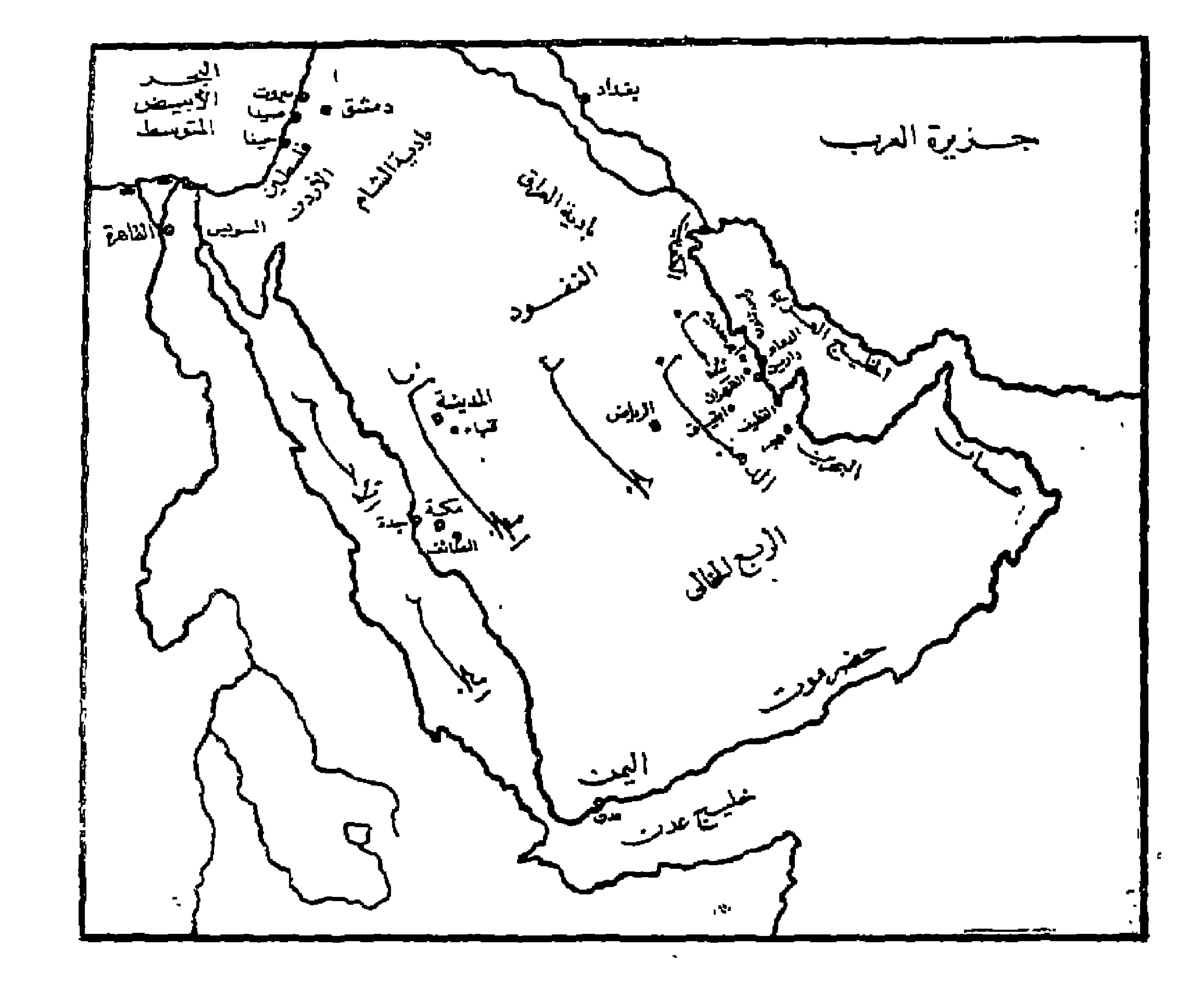
لبيكم أيها الإخوان الكرام ! هأنذى أبلغ الرسالة وأسجل أصداء ما سمعت منكم هناك ، فهل ترى يبلغ صوتى مسمع الأدباء والدارسين من بنى وطنى ؟ !

أرجو ، وآمل . . .

وتحية طيبة ، يحملها هذا الكتاب إليكم وإلى أهل الجزيرة جميعاً . . .

من
بنت الشاطىء

هليوبوليس : ١٣٧٠ هـ
١٩٥١ م


جـزيرة العرب
البحر الأبيض المتوسط
دمشق
بغداد
القاهرة
السويس
فلسطين
الأردن
بادية الشام
النفود
المدينة
مكة
جدة
الطائف
الرياض
الربع الخالي
حضرموت
اليمن
خليج عدن

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٣٥٨٤ / ١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣